سومر

الجزء الاول والثاني - المجلد الخامس والاربعون

١٩٨٧ - ١٩٨٨

العناصر الزخرفية

حميد محمد حسين
ماجستير آثار

تمهيد

جبل الانسان منذ القدم على تذوق فن الزخرفة والزينة في مسكنه وملبسه وأثاثه ، وحتى في تشكيل طعامه[1] . فكان الانسان الذي سكن الكهوف يرسم على صخور الكهوف صوراً لبعض الحيوانات التي كان يشاهدها في محيطه ، وكذلك صور بعض النباتات والاشجار ويستعمل ما يتوفر لديه من الاصباغ لتلوين تلك الرسوم أقرب الى لونها الطبيعي[2] . وقد أمدتنا التنقيبات الاثرية بنماذج كثيرة عما كشف عنه في أقاليم مختلفة ، لان التقدم الحضاري الذي أحرزه الانسان عبر السنين قد ساهمت فيه أمم مختلفة ، وكان للعراق دوره الفعال في هذا المجال ، والفن الاسلامي هو الحلقة الاخيرة من تلك السلسلة التي مرت بهذه البلاد[3] ، ويستدل من طابع الزخرفة العباسية في بغداد ان مقوماتها وجذورها مستمدة من ماضيها[4] . وما نشاهده من حلية زخرفية في المباني الاسلامية التي مازالت قائمة ، منها البيوت التي يرجع معظمها الى العصر العثماني المتأخر ، فهي الاستمرار للاساليب الفنية التي كانت سائدة في العصر العباسي .

ومن المظاهر الهامة في المباني السكنية في العصر العثماني الاهتمام بالزخارف الداخلية والعناية بها ، اما خارج المبنى فيكاد يكون خالياً من الزخارف ، باستثناء بعض المناطق فوق الابواب والشبابيك إن وجدت . وإعتماداً على الزيارات الميدانية التي قمنا بها لعدد من البيوت موزعة في معظم محافظات القطر ، يمكننا تقسيم العناصر الزخرفية المستخدمة في البيوت كالاتي :

١ ـ الزخارف النباتية .
٢ ـ الزخارف الهندسية .
٣ ـ الزخارف الحيوانية .
٤ ـ الزخارف الكتابية .

الزخارف النباتية

ان المقصود بالزخارف النباتية كل رينه او حلية زخرفية تعتمد في رسمها او نقشها على عناصر النبات واجزائه كالسيقان

---

* يمثل هذا البحث الفصل الخامس من اطروحتي لنيل شهادة الماجستير بعنوان « البيت العراقي في العصر العثماني »

(١) يوسف ، شريف « الزخارف والزينة في العمارة العربية الاسلامية » مجلة الرواق ، العدد ٥ لسنة ١٩٧٩ ، ص ٤ .
(٢) تشايلد ، جوردون ، ماذا حدث في التاريخ ، ترجمة د . جورج حداد ، ص ٣٦ ـ ٣٧ .
فرانكفورت ، هنري ، فجر الحضارات في الشرق الادنى ، ص ٣٧ .
برستد ، جيمس هنري ، إنتصار الحضارة ، ص ٣١ ـ ٣٢ .
باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، جـ ١ ، ص ٣٦ .
غلاب ، محمد السيد ، الجوهري ، يسرى ، الجغرافية التاريخية ، عصر ماقبل التاريخ وفجره ، ص ٣٢ ـ ٣٣ .
بهنسي ، عفيف ، الفن عبر التاريخ ، ص ١٠ ـ ١٤ .
عارف ، عائدة سليمان ، مدراس الفن القديم ، ص ٢١ ـ ٢٣ .
فارس ، شمس الدين ، الخطاط ، سليمان عيسى ، تاريخ الفن القديم ، ص ١٥ ـ ١٩ .
(٣) مرزوق ، محمد عبدالعزيز ، العراق مهد الفن الاسلامي ، ص ١١ .
(٤) مكية ، محمد ، « الدور البغدادية والتراث السكني » ، ص ٢٣٥ .

والاوراق والازهار والاثمار بمختلف اشكالها أو
كانت بشكلها الطبيعي أو محورة بهيئة رموز
طبيعتها الاصلية ويستفاد من التجريد في
الزخرفية وبدء فراغاتها في الافاريز واكساء الا

لم تكن الزخارف النباتية جديدة على الف
عرفتها الامم السابقة للاسلام . وبخاصة في الف
والهيليني ، وان الطراز الاموي هو حلقة الاتصال
النباتية في العالم الكلاسيكي وما تطور
الاسلامية[٦] . ويبدو على بعض الزخارف
طابع هندسي . وقد كانت منذ البداية عنصرا
الزخرفة الاسلامية لكنها كانت ترسم بطريقة
عن الطبيعة ، وقد فسر بعض العلماء ذلك
تقليد الخالق[٧] ، وان بعض الاشكال النباتية
كانت معروفة في الفنون القديمة ومنها ورقة
في الفن العربي الاسلامي تاريخ طويل . « لم
واحدة بل أخذت سبيلها الى التطور . حيث
وجفافها وخلعت ردائها التقليدي . وكأنها
الريح ، تفتحت تارة وإنكمشت تارة أخرى .
وانثقبت أحياناً أخرى . واعتدلت أو إنحر
وإنشقت ، وإستوت أطرافها أو تضرست وتشكل
حتى كادت تفقد خصائص **مظهرها** واصبحت
الاشكال نسجا من الخيال وخيوطاً متصلة أو
ورقة ممتلئة »[٨] ، وهي تمثل العنصر الغالب
النباتية التي نشاهدها مرسومة أو منقوشة في
الداخلية وفي داخل الغرف والاواوين وفي
والقليل منها ما نشاهده فوق الابواب الخارجية
وجدت .

ومن الخصائص البارزة للزخارف النباتية
وعناصرها المتقابلة وتشكيلاتها المتداخلة
إمتازت بكثرة إستعمالها في تزيين أرضيات
الاخرى كالاشكال الهندسية والمقرنصات والكتابات

(٥) الجنابي ، كاظم ، « حول الزخارف الهندسية
جـ ١ ـ ٢ ، م ٣٤ ، ص ١٤٣ .
(٦) حسن ، زكي محمد ، فنون الاسلام ، ص ٢٥١ .
(٧) حسن ، نفس المصدر ، ص ٢٥٢ .

هذه الاعمال الفنية ، وبخاصة الزخارف النباتية التي تعتبر أكثر العناصر شيوعاً ، وفي مقدمتها : « زهرة القرنفل ، زهرة اللالة ، شجرة السرو ، النخيل ، وفاكهة الرمان ، العنب ، ومن أوراق الشجر ما كان رنحياً[١٢] إضافة إلى أوراق نباتية ذات أشكال وأوضاع مختلفة ، ومن الفروع النباتية الملتوية التي تمتد بصورة أفقية وتنحني وتخرج منها أوراق ذات أشكال مختلفة الغالب فيها الاوراق الجناحية ، والاوراق الكأسية ، تزين أعلى الابواب والشبابيك وعقود الاواوين ، وفي وسط الدوائر المتقاطعة وبعض الاشكال الهندسية ، إضافة الى اشكال الانية.

ونتيجة لكثرة الزخارف النباتية وتنوعها في البيوت المشيدة في العصر العثماني المتأخر في العراق ، يمكننا تقسيمها من حيث مادة صناعتها الى مايلي :

١ ـ الزخارف انبناتية على الرخام :

يتميز هذا النوع من الزخارف النباتية بالتنوع الكبير والعناية الفائقة التي كان يبذلها النقاش في زينة البيت ، ومن ابرز انواع الرخام المستخدم في عمل الزخارف نوع يميل الى الزرقة ، حيث نرى زيادة اقبال الناس عليه بسبب كثرته وقرب مقالعه من مراكز بعض المدن الشمالية ، خاصة مدينة الموصل ، اذ تكثر مقالعه في ضواحيها اضافة الى كونه سهل القلع ومطاوع للعمل ، هذا ما جعل الناس يفضلونه على الاجر في مدينة الموصل وضواحيها ، فكان مادة رئيسية في ابنيتهم واتخذوا منه المناطق والعقود والمداخل والشبابيك وبلطوا به دورهم ، وزينوا به القسم الاسفل من مبانيهم ، وكان هذا منذ فجر الحضارة الاشورية... وقد ورث العرب عن اجدادهم الاشورين هذه الصناعة ولم يكونوا مقلدين لمن سبقهم ، بل انهم جمعوا ما ورثوه من العناصر المحلية والقديمة في الزخرفة والنقش ، الى ما تأثروا به من الصناعات المحلية المجاورة لهم ، وابتكروا عناصر جديدة من الزخرفة والنقش والتطعيم توافق ذوقهم وعاداتهم ومعتقداتهم[١٣] ، وما نشاهده اليوم من زخارف نباتية منقوشة في البيوت الموصلية ما هي الا استمرار لتراث عريق لشعب خلدت اعماله على مر القرون ، ومنها اعماله الفنية التي نرى البعض منها محفوراً على الرخام بشكل بارز أو بهيئة حزوز قليلة العمق ، كانت تتخذ منها اشرطة تحف بمداخل البيوت والشبابيك ، ويزينون تلك الاشرطة باوراق وازهار مختلفة وفروع نباتية بوضعيات مختلفة ايضاً.

ومن خلال زيارتنا لبعض البيوت لاحظنا ان البيت الموصلي من اغنى البيوت العراقية في زخارفه النباتية المحفورة على

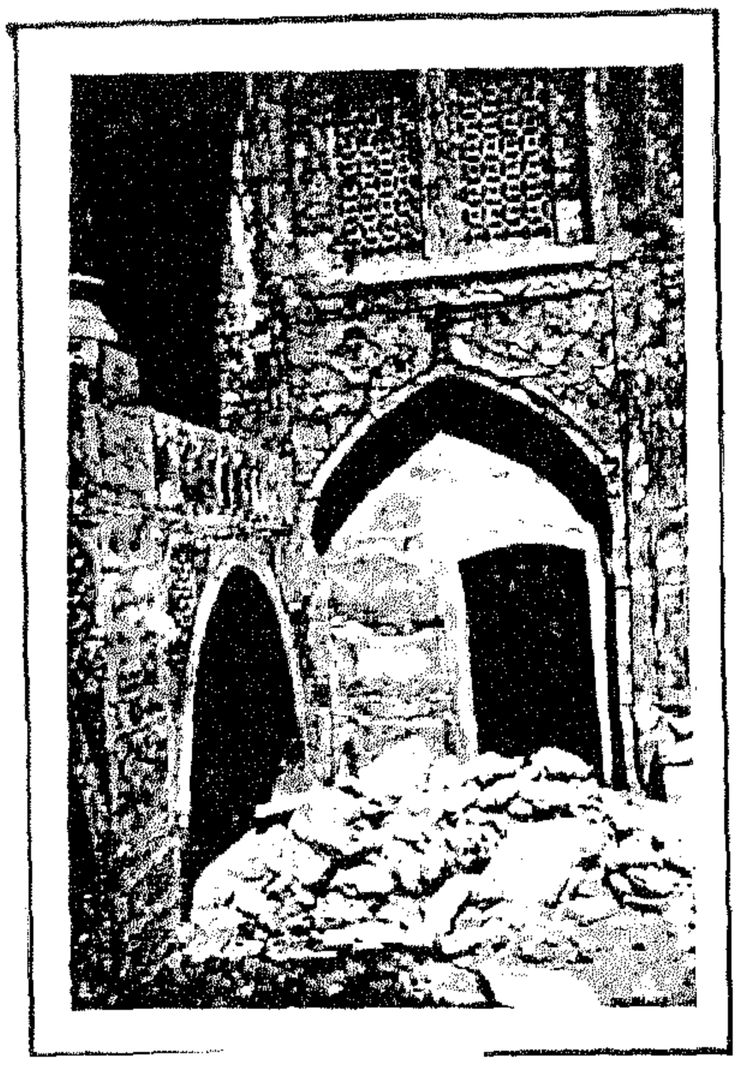

(شكل ١)

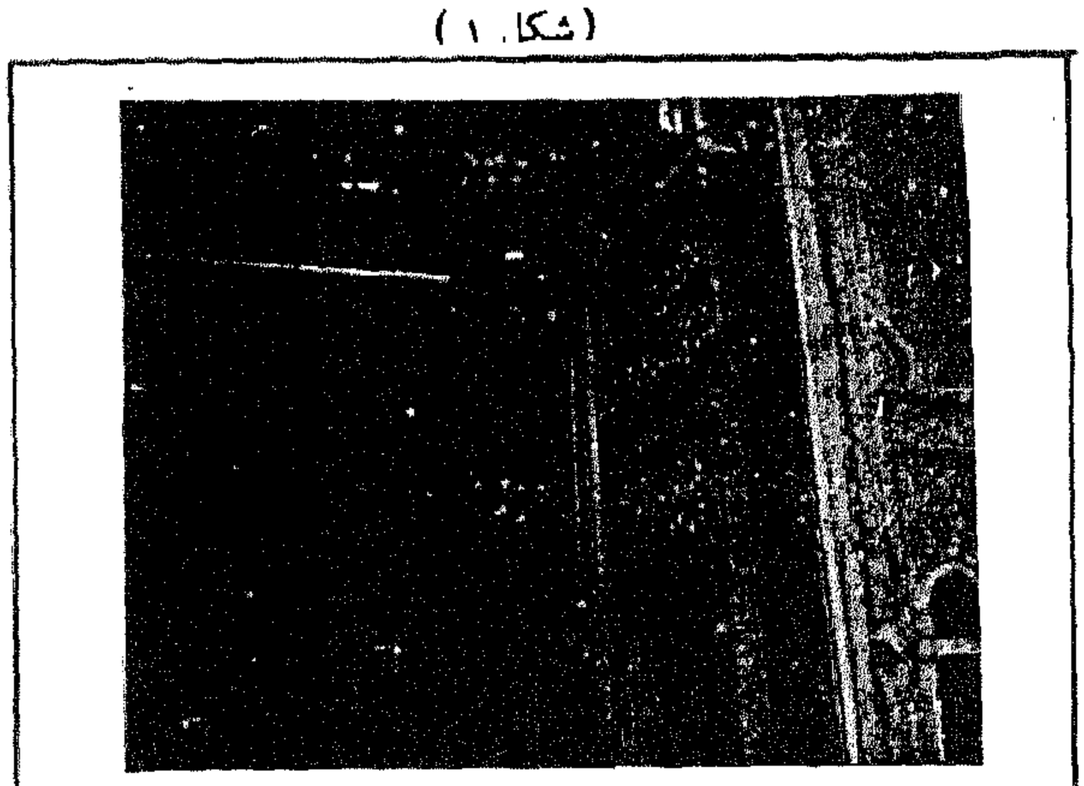

(شكل ٢)

الرخام الازرق ، بهيئة اشرطة تعلو الابواب والشبابيك والدخلات ، قوامها فروع نباتية ملتوية تمتد بعدة اتجاهات تخرج منها اوراق صغيرة باتجاه الفراغات الحاصلة بسبب الالتواء ، وفروع نباتية متتابعة دائرياً تخرج منها اوراق صغيرة لتملأ الفراغات الناشئة بسبب الالتواءات والانحناءات التي اتخذت شكلاً يشبه دوائر متقاطعة في مراكزها كما هو الحال في بيت السيد « مصطفى التوتنجي » في الموصل ، وفي نفس البيت نلاحظ وجود سلسلة من الدوائر المتقاطعة تمتد فوق شبابيك ودخلات الايوان الجنوبي ، تتوسطها ازهار كاسية ، وعلى جانبي

(١٢) مرزوق ، محمد عبدالعزيز ، الفنون الزخرفية الاسلامية في العصر العثماني ، ص ٣٨ .

(١٣) الديوه جي ، سعيد ، « الزخارف الرخامية في الموصل » ، ص ٤٦٩ .

عقود الاواوين وشبابيك السرداب تمتد اشرطة مزينة بزهرة الاقحوان ، التي تتكرر في معظم البيوت القديمة . وهي تتوسط جامة ذات شكل « اهليليجي » تنتهي في جوانبها بورقة ثلاثية قليلة البروز (شكل ١) .

ويكاد بيت « ايليا جمعة » ينفرد عن غيره من البيوت بزخارفه النباتية الدقيقة الصنع التي تتركز في الايوان ومقدمة الغرف داخل الرواق ، تحف بالابواب والشبابيك والدخلات وتعلوها مؤلفة اطر لها ، تعتمد في موضوعها على حركة الاغصان الافعوانية التي تخرج منها عناصر فنية متشابهة تملأ الفراغات المتخلفة من حركة الاغصان المذكورة . ومن مظاهرها الفنية الحزوز داخل الاغصان والتقعر داخل اتصال الاوراق النباتية (شكل ٢) .

ان هذه الزخارف تشبه في تركيبها ورقة العنب الخماسية ذات العيون التي كثر استخدمها في العصر العباسي ، وبخاصة في مدينة سامراء ، ويمكننا ان نشبه هذه الزخرفة بزخرفة التوريق التي اشتهر بها العرب وسماها الاوربيون « ارابسك » ونشاهد هذا النوع من الزخرفة يتكرر في بيت السيد « فرنكول » في محلة الخزرج تعلو الابواب والشبابيك والدخلات وتزين تيجان الاعمدة ، وفي بيت السيد زياد الجليلي الذي يعتبر اقدم البيوت التي قمنا بزيارتها جميعاً « ١١٦١ هـ » نلاحظ وجود زخرفة نباتية قليلة البروز تزين عقد مدبب من الداخل يعلو دخله تقع على يسار الداخل من الباب الرئيسي المسدود حالياً . والتي تقع اسفلها دكة ، قوام زخرفتها فروع نباتية ملتوية تؤلف في وسط العقد شكلاً يشبه الآنية تخرج من اعلاه واسفله فروع نباتية تنتهي بورقة عنب خماسية ذات عينين ، الفص الاوسط منها اكثر استطالة من البقية ، وهذا ما شاهدناه ايضا في بيت فرنكول . وايليا جمعة ، اضافة الى بيوت متفرقة اخرى (شكل ٣٠) .

ورقة الاكانتس احدى العناصر النباتية التي نشاهدها تزين تيجان بعض الاعمدة الرخامية في مدينة الموصل مثل بيت السيد « ابراهيم احمد » . والدلايات تعتبر ابرز العناصر الزخرفية النباتية . وهي ما تمتاز به مداخل البيوت الموصلية . حيث نشاهدها تزين السطح السفلي من عتبة الباب وقد اتخذت أشكالاً عدة ، ويوجد ما يماثلها في عتبات المداخل السورية من العصر الايوبي ، وفي مداخل مدرسة العادلية والاشرفية والقليجية في دمشق ، ووجدت بعض هذه الدلايات في بعض الرسوم والعائر في المنمنمات التي رسمها الواسطي في منتصف القرن الهجري (١٣ م)[١٤] .

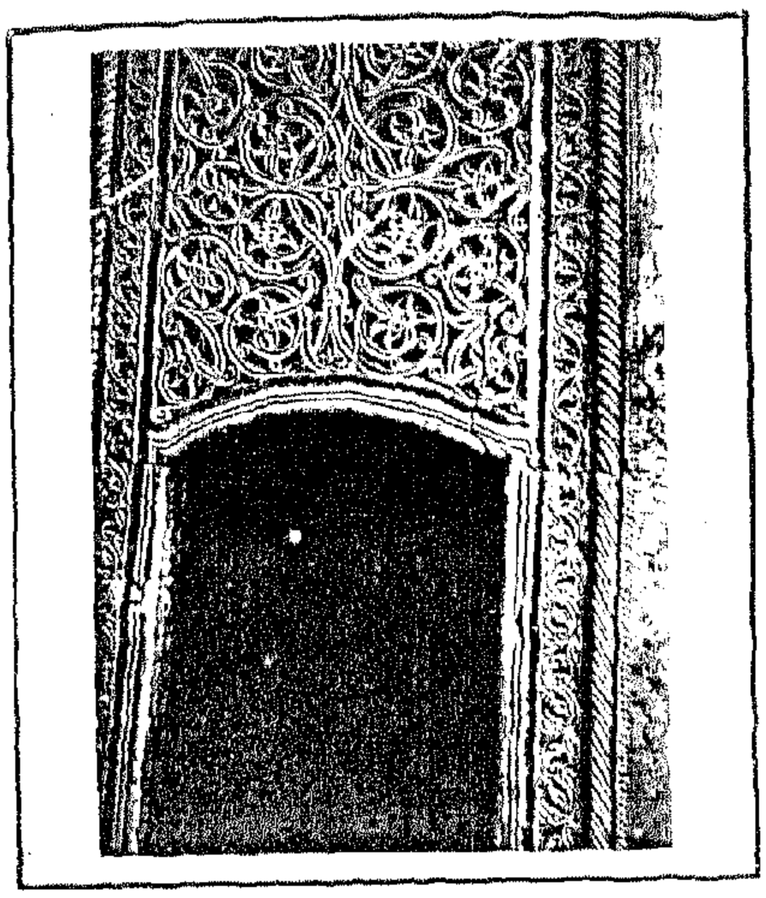

(شكل ٣)

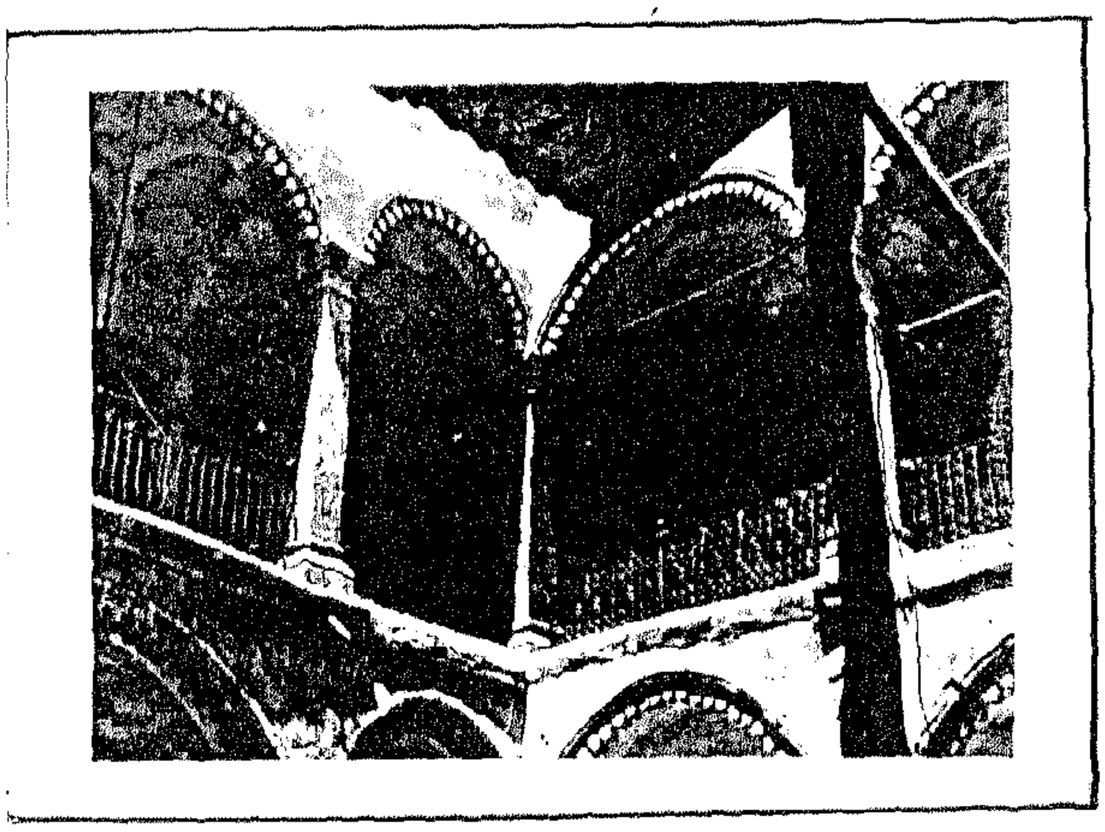

(شكل ٤)

ومن الدلايات ما يزين بواطن العقود نلاحظها في كثير من بيوت المنطقة الشمالية . وبخاصة في مدينة الموصل . حيث تسمى « القناديل الموصلية » لانها مدلاه بهيئة القناديل . منها في بيت « ايليا جمعة . وبيت « الساعاتي » (شكل ٤) في محلة الساعة وبيت [illegible] وفي كثير من البيوت التي قمنا بزيارتها . اما اقدم النماذج هو ما شاهدنا في منتصف احدى غرف قسم الحرم ببيت « معطفي التوتنجي » اذ تتوج الدلايات احد المداخل الفاصلة في الغرفة التي تقع على يمين الايوان في الطابق العلوي .

ان هذه الدلايات تمثل ورقة عنب محورة بشكل مجسم . وهي ذات ثلاثة فصوص أو خمسة أو سبعة أو تسعة تتدلى من باطن العقد نحو الاسفل بهيئة القناديل . وهي من العناصر الزخرفية التي تكاد مدينة الموصل ان تنفرد بها . ومن الموصل انتقلت الى بعض المدن الشمالية منها ما نشاهده في بعض بيوت اربيل .

العبدالله . احمد قاسم جمعة . الاثار الرخامية في الموصل خلال العهدين الاتابكي والايلخاني ـ رسالة دكتوراه ـ بالرونيو ـ القاهرة ١٩٧٥ ـ ص ٧٣ .

بيت السيد « عبدالله اغا » تزين باطن العقد الذي يتوج باب رفة الضيوف وفي بيوت اخرى ، وكذلك في مدينة كركوك اما بب وجودها في هاتين المدينتين فهو قربها من مدينة الموصل ذي سهل عملية نقل الرخام الازرق الذي تفتقر اليه كل من ربيل وكركوك ، وانتقال الصناع الذين كانوا يقومون بتركيبه .

واشكال الآنية من الزخارف المتممة للزخارف النباتية ، ففي ثير من البيوت نلاحظ ان اشكال الآنية منقوشة بفروع نباتية توسط بعض الاشكال أو التفرعات كما في بيت « الجليلي » و « التوتنجي » و « ايليا جمعة » في الموصل وبيت « علي أغا » و « ميكائيل » في كركوك (شكل ٥) .

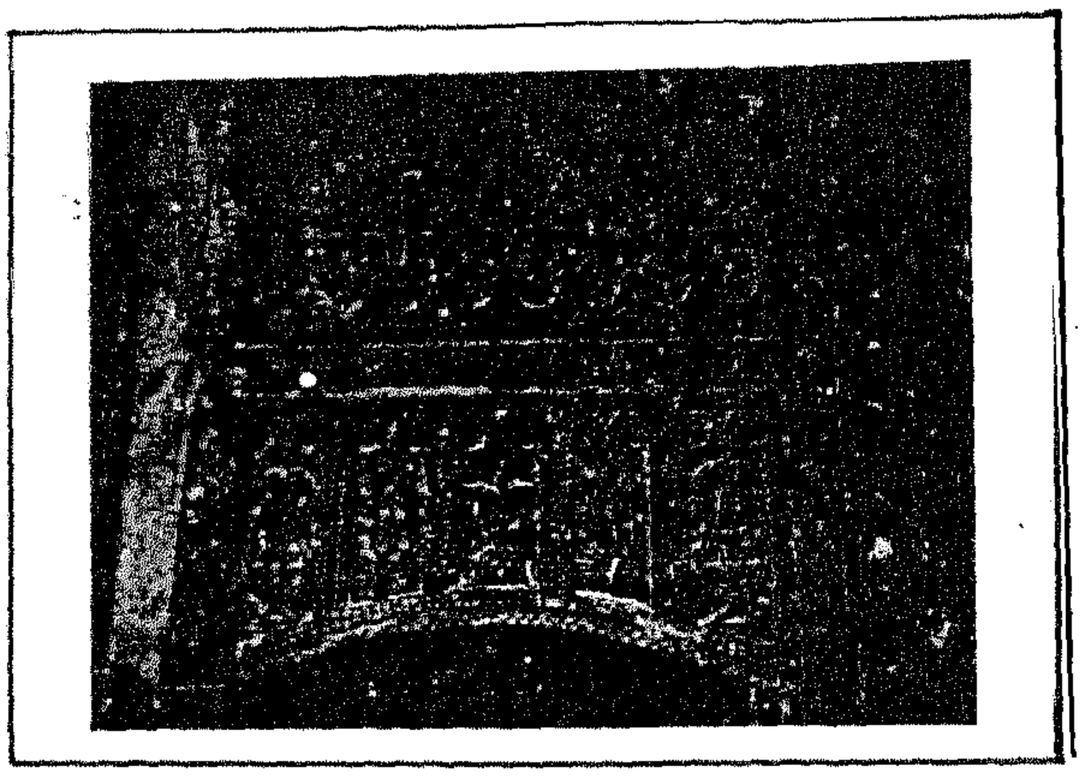

(شكل ٥)

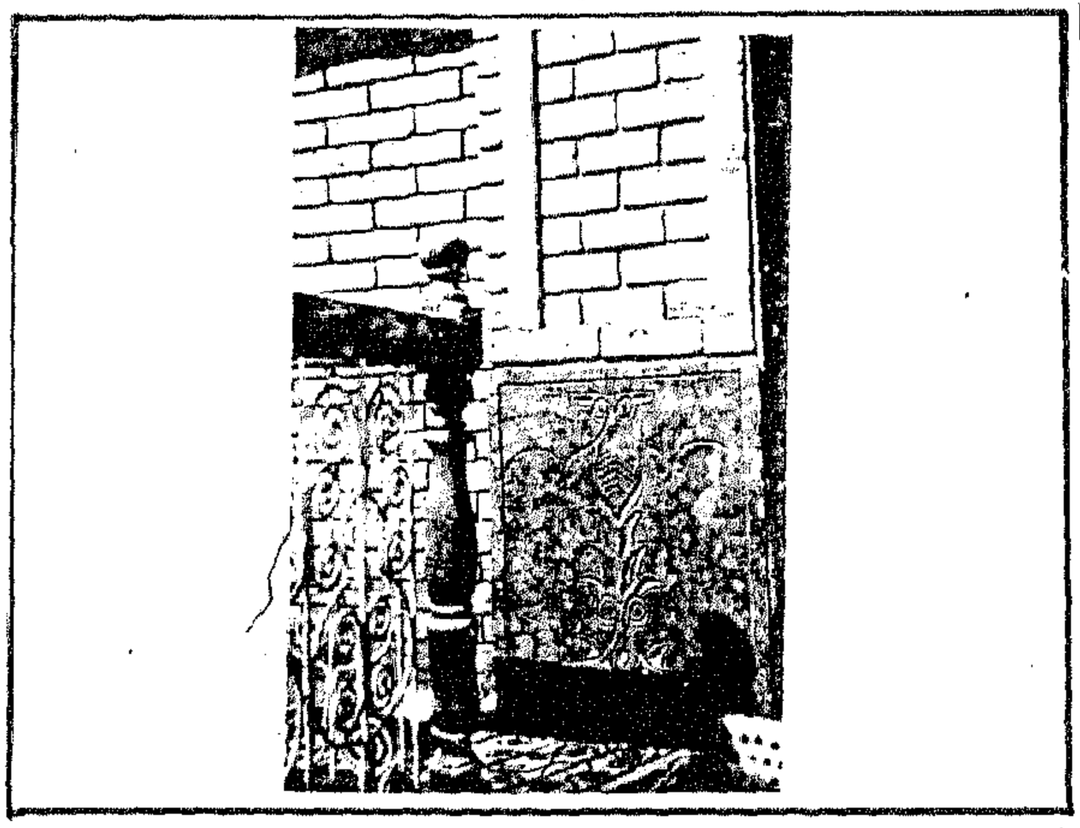

(شكل ٦)

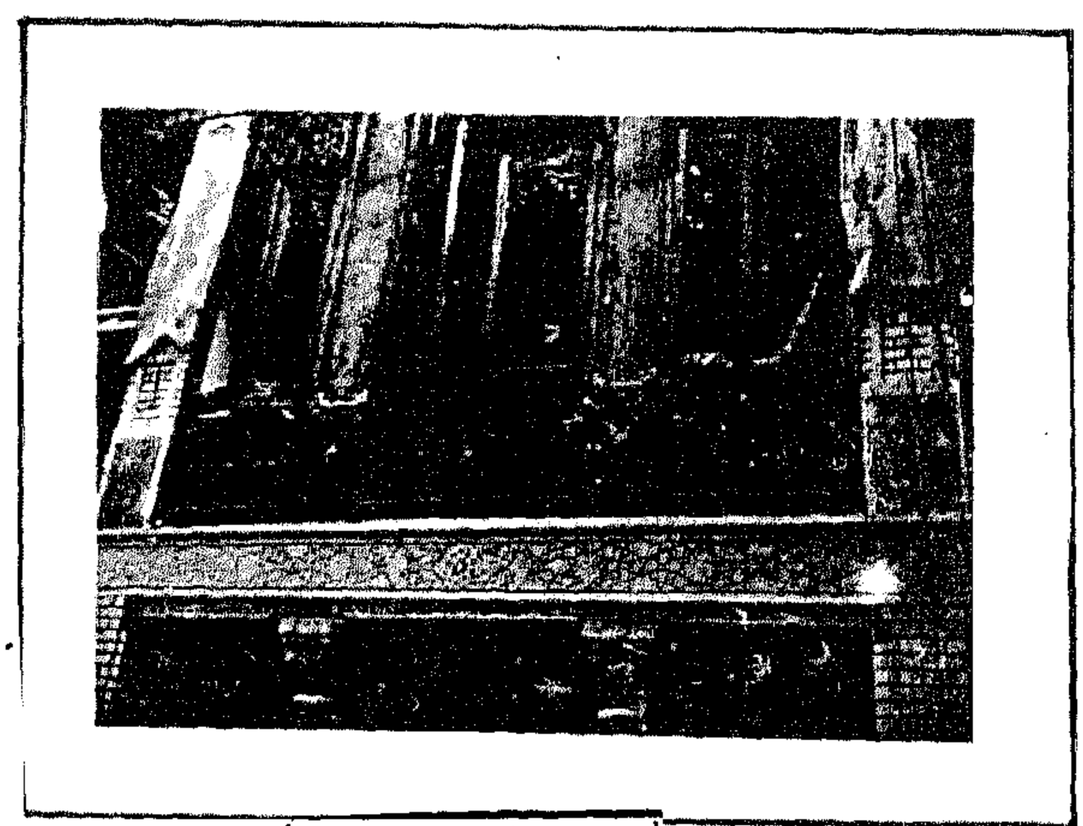

(شكل ٧)

.وفي مدينة بغداد نلاحظ وجود بعض الزخارف النباتية المحفورة بهيئة حزوز قليلة الغور على الرخام الازرق ، تمثل فروع نباتية تتوسطها زهرة اللوتس المحورة اسفل الجدار الشمالي في الطابق العلوي من بيت « الشهربلي »[١٥] (شكل ٦) وزهرة اللاله التي تزين جوانب تاج العمود الحلزوني الذي يتقدم ايوان الطابق الارضي (شكل ٧) في نفس البيت ، أما بقية البيوت التي قمنا بزيارتها ، فقد شاهدنا وجود الرخام الازرق لكنه مجرد من الزخرفة ومستخدم في درجات السلالم وتباليط ارضيات بعض السراديب والاروقة والشرفات كما في بيت « الشهربلي » و « الكيلاني » ، وفي مدينة البصرة شاهدنا وجود هذا النوع من الرخام لكنه يعود لفترة متأخرة .

الزخارف النباتية على الجص :

يمثل الجص احدى المواد الاولية الرئيسية التي كانت وما زالت تستخدم للبناء ولعمل الزخارف التي تزين بها المباني ، وتمتاز بدقتها وجمالها ، حيث كانت تعمل داخل وحدات أو شرائطه ويمارسها عمال مختصون ، وهي تمثل احدى الصناعات القديمة التي كانت معروفة في العراق ، وقد اشتهرت بها بعض المدن الاسلامية ومنها سامراء في العصر العباسي ، وقد انتقلت منها الى بعض المدن العراقية وبخاصة الموصل بسبب قربها وانتقال أو هجرة التكارته الى مدينة الموصل على شكل دفعات اخرها كان في القرن العاشر للهجرة (١٦ م) واخذ عنهم الموصليون هذه الصناعة واقبل الناس على تزيين دورهم بها ، فزينوا الغرف والاواوين والمنحنيات والسراديب والجوامع والكنائس وصارت من لوازم جمال الدار[١٦] .

يمكننا أن نقسم هذا النوع من الزخارف الى قسمين : الاول الزخارف البارزة ، والثاني الملونة ، والقسم الثاني أكثر شيوعاً وبخاصة في المنطقة الشمالية ، حيث نلاحظها تزين سقوف الاواوين

---

(١٥) في شارع الخلفاء قرب منقطة الشورجية .
(١٦) الديوه جي ، سعيد ، البيت الموصلي ، ص ٣٥ .

وبعض الغرف وأعالي الجدران بعدة ألوان ، تمثل فروع نباتية ملتوية ومتشابكة في مكان وتنساب بليونه في مكان اخر بدقة وإنتظام ، وتخرج منها أوراق صغيرة ذات أشكال مختلفة . كما هو الحال في بيت « التوتنجي » و « زيادة » في الموصل . « وبيت » عبدالله « أغا » و « رشيد أغا » و « جميل أفندي » في أربيل ، وبيت « علي اغا » و « ميكائيل » في كركوك (شكل ٨) .

ومما كان العراقيون يزخرفون به بيوتهم ، صبغة وتقش بنقوش دهنية ، وذلك بعد مضي سنة أو أكثر على البناء ، وأكثر الالوان إستعمالا هي :

« الازرق (النيلي) ، الذهبي . الأصفر . الاحمر الفاتح ، الاخضر » ، حيث كان يقوم الصباغ بصبغ الدار ، ويقوم النقاش بنقشها ، والدهن المستعمل للصبغ هو دهن بذر الكتان ويسمى في الموصل دهن « الزكرك »[١٧] ، وبعضهم كان يصبغ الرخام في واجهات البيوت[١٨]

ان معظم الزخارف النباتية في البيوت السابقة الذكر نفذت باصباغ ذات الوان مختلفة على سطوح ملساء ، أبرزها يمثل شجرة السرو المحورة عن الطبيعة ، الاشجار الرمحية ، آنية الناكر . إضافة الى الفروع النباتية التي تشاهد بوضعيات مختلفة تدل على قابلية الفنان في معالجة زخارفه بشكل فني ودقيق (شكل ٩) .

اما الزخارف الجصية البارزة على الرغم من قلتها . لكن الموجود منها يدل على دقة في الصنع ومهارة فائقة في التنفيذ كما ويدل على وجود ذوق فني رفيع إكتسبه من خبرته وتفاعله الاساليب التركية مع الاساليب المحلية ، وهذا ما نشاهده في القاعة المعترضة التي تطل في نهايتها الجنوبية على المدينة ـ من غرفة الضيوف في بيت « رشيد أغا » وسقف الايوان الشرقي والغربي من الجناح الجنوبي إضافة الى واجهة الجناح وتعلو الاعمدة ذات البدن الحلزوني في بيت « جميل أفندي » وتتكرر هذه العناصر الزخرفية في معظم البيوت التي قمنا بزيارتها . ومن خلال ملاحظتنا الدقيقة والتشابه الكبير بين الاشكال جعلنا نعتقد بأن الرسام والنقاش كانا من سكان قلعة أربيل بحيث إستطاعا ان ينجزا عدة أعمال فنية وفي عدد من البيوت في فترة زمنية متقاربة (شكل ١٠) .

وتعتبر كركوك من أكثر المدن العراقية تأثراً بالاساليب الفنية التي كانت سائدة في العصر العثماني ، وهي لا تختلف عما شاهدناه في مدينة أربيل ، وفي بعض بيوت مدينة الموصل منفذة على الرخام منها بيت « زياد الجليلي » و « فرنكول » و « ايليا

---

(١٧) « زكرك » كلمة فارسية تعني بذر الكتان .
(البكرى . حازم . في الالفاظ العامية الموصلية . ص ٢٤٥) .
(١٨) الديوه جي . سعيد « البيت الموصلي » . ص ٣٨

التمسك بالاساليب الفنية القديمة التي ترجع في أصولها الى العصر العباسي ، على الرغم من سيطرة الاتراك العثمانين لفترة طويلة من الزمن ، والذي نلاحظه في بيت الاسترابادي في الكاظمية من زخارف نباتية بارزة تزين الفراغات المحصورة بين الدخلات في غرفتي الضيوف وإيوان الطابق العلوي ، يعتبر من النماذج القليلة النادرة في هذا الباب ، والذي نرجحه هو إستخدام القالب في عملها بسبب التكرار والتناظر التام بين الاشكال ، وفي غيره من البيوت فالامثلة قليلة . (شكل ١١) .

٣ ـ الزخارف النباتية على الاجر :

نظراً لانعدام الحجارة التي يندر الحصول عليها أو رؤيتها على مسافات بعيدة في بعض المدن العراقية ، فقد شيد سكانها مبانيهم من اللبن والاجر حيث تتوفر مادة الطمى الطينية الجيدة التي صنع منها الاجر المستعمل كمادة رئيسية في البناء والزخرفة في جميع العمائر ، وذلك لسهولة الحصول عليه ، وبخاصة في مدينة اربيل ووسط وجنوب العراق ، حيث استعمل كمادة رئيسية في البناء والزخرفة ، وقد استطاع المعمار العراقي ان يحقق زخارف دقيقة الصنع وذات اشكال جميلة ، والسبب هو ان الاجر من المواد الاولية التي يسهل تقطيعها وتهذيبها ونحتها ونقش العناصر الزخرفية عليها ، التي تظهر بارزة مجسمة وهذا يتمثل في العناصر الزخرفية عليها ، التي تظهر بارزة مجسمة وهذا يتمثل في العناصر النباتية بصورة خاصة[١٩] . اضافة الى مرونته وانصياعه لرغبة البناء الحاذق في تشكيل اعقد التأليفات والزخارف النباتية ... فضلاً عن ان هذه المادة تمتاز بالخفة والهشاشة التي يفتقر اليها الحجز[٢٠] ، لهذا نرى كثرة استخدام الاجر في البيوت لابراز الناحية الجمالية للمبنى ، اضافة الى وظيفته الانشائية . واربيل من المدن العراقية التي استعملت الاجر في مبانيها على الرغم من وقوعها ضمن المنطقة الشمالية . والسبب هو وقوعها في منطقة سهلية تربتها ناعمة تصلح لعمل الاجر الجيد ، وبعد مقالع الحجر عنها ، وصعوبة النقل من المنطقة الجبلية لوعورة الطرق . كل هذا جعل سكان اربيل يعرضون عن استعمال الحجر الا في حالات معينة ، ويميلون الى استعمال الاجر لسهولة الحصول عليه ، لكنه على الرغم من استعمال الاجر لم نعثر في البيوت التي قمنا بزيارتها على زخارف نباتية ، وهي تكاد تكون معدومة ، وذلك لميلهم الى عمل الزخارف بالوان على الجص

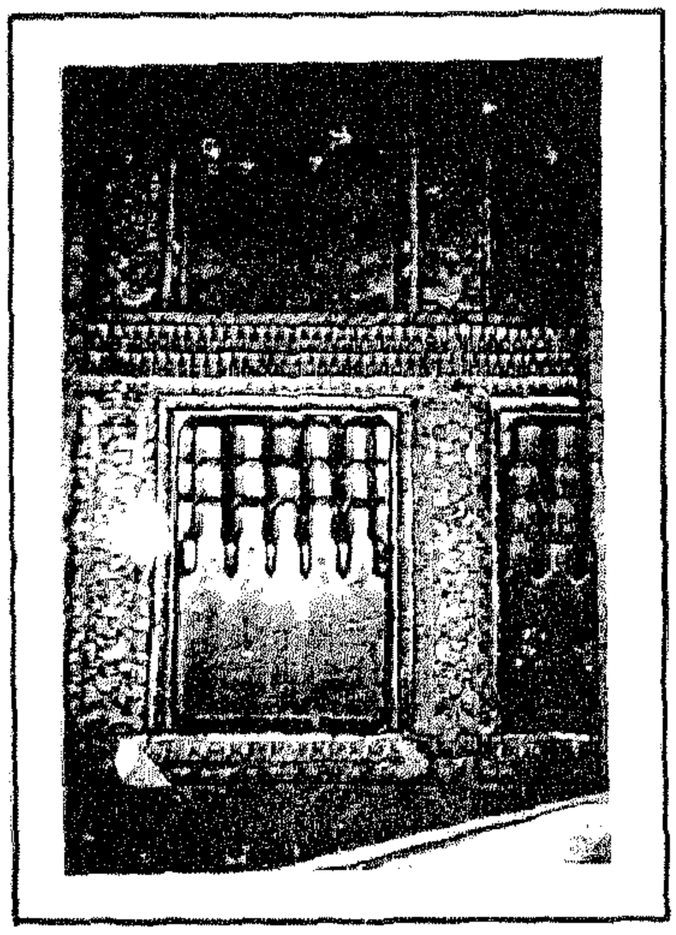

(شكل ١١)

اما مدن وسط العراق وجنوبه فهي غنية بعناصرها الزخرفية . الا ان النباتية منها قليلة وتكاد تقتصر على عدد من البيوت . اهمها ما نشاهده في غرفة الضيوف الصغيرة في الطابق الارضي من بيت « الشهريلي » في بغداد ، وفي ايوان الطابق الارضي من نفس البيت . اضافة الى الزخرفة النباتية البارزة التي تمتد فوق الباب الخارجي والشبابيك المطلة على الزقاق . وما عدا هذه البيت لم نعثر على زخارف نباتية في البيوت التي قمنا بزيارتها وان وجدت فهي قليلة جداً . فالغالب هو العنصر الهندسي الذي نشاهده في جميع البيوت المبنية بالاجر تقريبا .

٤ ـ الزخارف النباتية على الخشب :

الخشب من المواد الرئيسية التي كانت ومازالت تستخدم في البناء والزخرفة . والبيت من اكثر الابنية استخداماً للخشب وبخاصة في عمل الواجهات الداخلية المزججة ذات الزخارف المتنوعة ، اضافة الى الابواب والشبابيك والسقوف . والتي اصبحت في العصر العثماني صفة خاصة ميزت الفنون في تلك الفترة على الرغم من قلة الخشب ، بسبب ندرته وارتفاع ثمنه ، نلاحظ كثرة استخدامه في وسط العراق وجنوبه . اما في الشمال فكان استعماله محدوداً ، ويكاد يقتصر في عمل الابواب المجردة من الزخرفية باستثناء بعض الابواب في بعض بيوت اربيل ، وبعض السقوف في الموصل . منها سقوف بعض الغرف في بيت « زياد الجليلي » ، حيث استخدمت الزخارف النباتية بهيئة اشرطة تحيط بالجدران اسفل السقف واخرى تحيط بالسقف وتقسمه الى ثلاثة مستطيلات قوام زخارفها وريدات صغيرة ذات اشكال والون مختلفة ، وابواب الدواليب كانت تزين بمستطيلات تنتهي في قسمها العلوي والسفلي بورقة ثلاثية . وكذا الحال في مدينتي اربيل وكركوك .

---

(١٩) الاعظمي ، خالد خليل ، « عمارات بغداد في العصر العباسي » مجلة المورد ، العدد ٤ ، م ٩ ، السنة ١٩٨١ . ص ٢٥ .

(٢٠) مكية محمد ، « تحليل القوام الانشائي للعمارة البغدادية » بغداد ، عرض تاريخي مصور ، ص ٢٣٤ .

اما في مدن وسط العراق وجنوبه . فالبيوت تزخر بزخارفها النباتية بسبب كثرة استخدام الخشب وبخاصة عمل واجهات خشبية مزججة ذات زخارف متنوعة في الطابق الارضي . وبناء معظم الواجهات المطلة على الفناء في الطابق العلوي حيث كانت تزين الشبابيك وبخاصة الشناشيل بزخارف نباتية ذات اشكال مختلفة . ويعتبر بيت « الشهربلي » من اغنى البيوت العراقية بزخارفة النباتية التي تزين الواجهة الشرقية والغربية والجنوبية . اضافة الى الشناشيل والسقف التي امتزجت مع بعض العناصر الهندسية والزجاج الملون وبعض قطع المرايا ذات الاشكال الهندسية والنجمية (شكل ١٢) .

وبيت الحاج مخيف الشخير في النجف غني بزخارفة النباتية التي تزين الواجهة الجنوبية والشمالية واعلى الابواب والشبابيك . حيث كانت تسد الفراغات المحصورة بين العناصر النباتية بالزجاج الملون . ويتخلل بعضها اشكال هندسية وطيور . وفي مدينة البصرة نلاحظ أن نفس الإشكال تتكرر وبخاصة الورقة الثلاثية والفروع النباتية التي تمتد فوق الابواب والشبابيك والواجهات الخشبية المزججة والشناشيل . وهي بذلك تشبه النمط البغدادي الا أن استخدامه اقل كثافة من بغداد (شكل ١٣) .

٥ ـ الزخارف النباتية على الزجاج :

يمثل الزجاج احدى المواد الاولية التي نفذت عليها وبشكل دقيق بعض العناصر النباتية واشكال الانية بالوان متعددة . الغالب فيها « الاحمر . الوردي . الاصفر . والبرتقالي » كما في « الطره » التي تتوسط غرفة الضيوف . وسقف الرواق الذي يتقدمها وغرفة الشناشيل والشرفة التي تتقدمها في بيت « ابي السعد » في بغداد . والغرفة الكبيرة التي تتوسط الجناح الغربي في بيت السيد « عبد الرحمن النقيب » . وفي بيت الحاج مخيف الشخير بمدينة النجف ترى أن بعض الاشكال التي تشبه الانية قد ملأت الفراغات بين عدد من الفروع النباتية التي عملت من الخشب . بقطع من الزجاج الملون فوق الابواب والشبابيك . وفي الواجهة الخشبية المزججة في الجناح الجنوبي والشمالي . . وفي داخل احدى الغرف نلاحظ استخدام قطع المرايا والزجاج الملون في عمل بعض الاشكال النباتية المستمدة من شجرة السرو المحورة عن الطبيعة ، واعطى احياناً شكل الزهرية او الشمعدان ، وقد ثبتت هذه الاشكال على طبقة من الجص بمستوى الجدار .

اما سقوف الغرف والاروقة والشرفات فقد زينت نجامات في داخلها زجاج شفاف ذو اشكال مختلفة رسمت عليه بالالوان بعض الوريدات الصغيرة . تتوسطها في البعض منها كتابه ذات اسماء وعبارات دينية (شكل ١٤) .

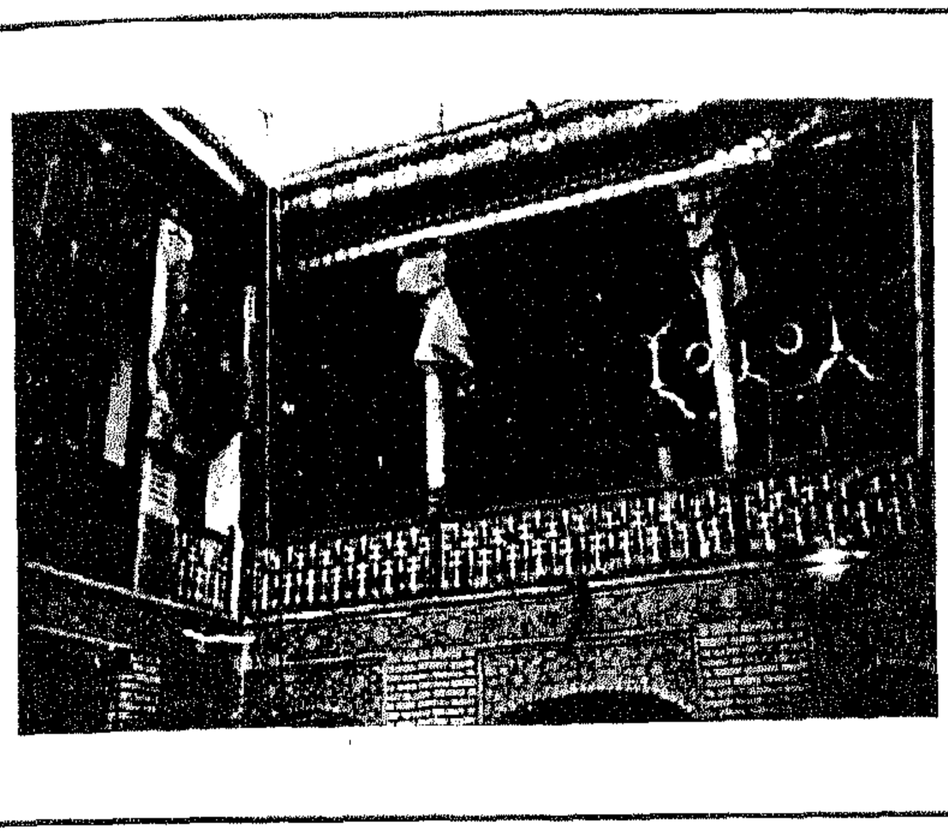

(شكل ١٢)

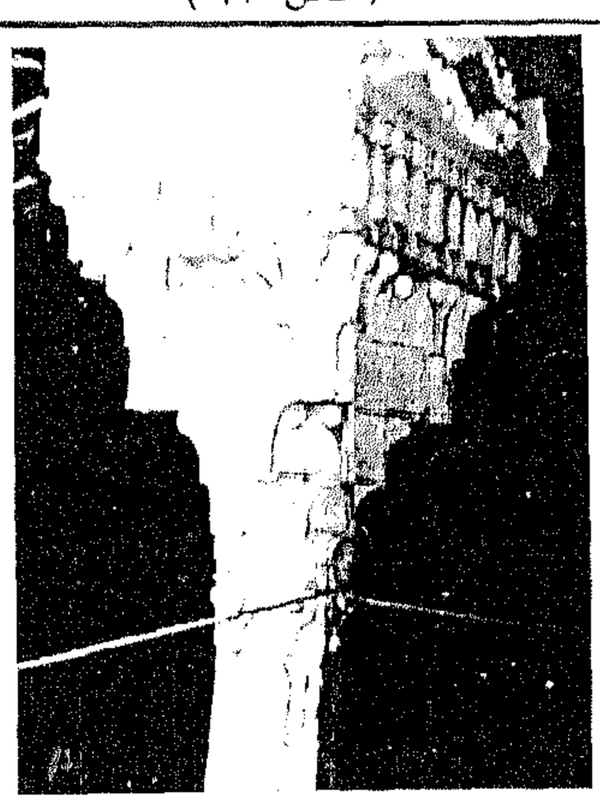

(شكل ١٣)

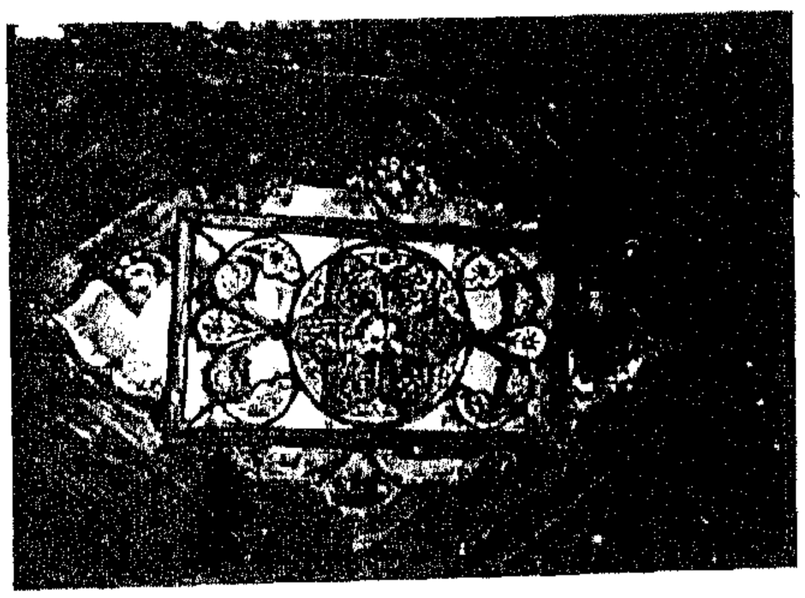

(شكل ١٤)

الزخارف الهندسية

والمقصود بالزخارف الهندسية استخدام الاشكال الهندسة المستوية أو المجسمة المرسومة بالمقاسات عناصر ووحدات زخرفية

على التحف والمباني أيضاً ، وقد تمتزج الزخارف الهندسية بالزخارف النباتية والحيوانية أو الكتابات مبالغة في زينتها واظهار جمالها على الوجه الاكمل[٢١] .

إن هذا النوع من الزخارف كان معروفاً في الفنون السابقة للاسلام ، وقد احتلت مكانة مرموقة حيث زينت بها معظم العمائر وكانت تستخدم كاطارات لغيرها من الزخارف[٢٢] ، وبخاصة في الفنون الرومانية ، غير أن إستعمالها كان محدوداً ، فضلاً عن أن رسوماتها كانت تدل على فقر في الخيال[٢٣] . وتطورت هذه الزخارف في الفنون الاسلامية تطوراً عظيماً واضحت عنصراً اساسياً من عناصر الزخرفة الاسلامية[٢٤] ، وتنوعت تنوعاً كبيراً ، وانتشرت انتشاراً واسعاً لا نظير له في تاريخ الفنون ، حيث امتدت وشملت جميع أجزاء الوطن العربي ، وما زالت قائمة حتى يومنا هذا . وفي هذا الباب ينفرد العربي بخياله الهندسي الذي ينصب على الكتلة ، فيقسمها ويجزئها ، ويحولها الى خطوط ومنحنيات تتكرر ، وتتعاقب ، وتتبادل ، وتمتد الى ما لانهاية حتى لايكاد الناظر اليها يحدد بدايتها أو نهايتها[٢٥] ، وما تزخر به العمائر العربية والاسلامية من زخارف هندسية خير شاهد على مانقول ، وهي تعتمد في اساس تكوينها على الدائرة واقطارها التي تؤلف من تقاطعها والتقائها الاشكال المطلوبة .

وفي الجامع الاموي بدمشق بضع نوافذ من الرخام فيها اقدم نماذج من الزخارف الهندسية في الاسلام[٢٦] . وعثر في قسم الحرس والمعية في قصر الاخيضر على زخرفة اجرية من الجص بها زخارف جصية معينية الشكل[٢٧] وكشفت التنقيبات الاثرية في مدينة سامراء عن زخارف هندسية متنوعة قوامها مسدسات في مركز كل منها ورقة ، تحيط بها سلسلة اوراق وعناقيد عنب متناوبة ، وبين المسدسات مثلثات ومعينات مزينة بكؤوس ، أو اوراق او عناقيد ، وتفصل هذه الاشكال أشرطة مزخرفة قوامها سلسلة حلقات وسلسلة خطوط ومثلثات صغيرة[٢٨] .

وفي الفترة العباسية المتأخرة ، هناك عدة أمثلة أبرزها القصر العباسي ببغداد الذي تزينه زخارف اجرية دقيقة الصنع تتركز في الوحدات الرئيسية كالايوان ورواق المدخل قوامها اشكال نجمية مكونة من تجمعها وحدات زخرفية متنوعة ابرزها ما يعرف بالطبق النجمي[٢٩] . وتزخر بناية المدرسة المستنصرية بزخارفها الاجرية ، وبصورة خاصة الهندسية منها ،وهي ذات أشتال متنوعة تعتمد معظمها في أساس تكوينها على الدائرة واقطارها والخطوط المنبعثة من مركزها ، والتي تؤلف من تقاطعها وتداخلها أطباقاً نجمية ومضلعات هندسية متعددة بلغت درجة كبيرة من التطور[٣٠] . وبعد سقوط الدولة العباسية عام (٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م) استمرت الاساليب الزخرفية التي كانت متبعة في العصر العباسي ، حيث نراها تزين العمائر الدينية والمدنية من عصور مختلفة وبخاصة العصر العثماني . لقد كانت هذه الزخرفة والى وقت قريب سراً من اسرار الصناعة يتلقاها الصبيان عن معلميهم في الفن والمهنة ، فكانت تتعلم بالمران كما كانت تصنع لها قوالب ونماذج يستعملها الصناع والفنانون في بعض الاحيان[٣١] . وتمتاز بدقتها وتنوعها وتدل على معرفة العربي التامة بعلم الهندسة اضافة الى مهارة الفنان التي اضفت عليها حيوية خاصة بعد تزيينها بالعناصر النباتية .

ونتيجة لكثرة هذه العناصر وتنوعها يمكننا تقسيمها من حيث مادة صناعتها الى مايلي :

١ ـ الزخارف الهندسية على الرخام .
٢ ـ الزخارف الهندسية على الآجر .
٣ ـ الزخارف الهندسية على الخشب .
٤ ـ الزخارف الهندسية على الجص .
٥ ـ الزخارف الهندسية المعمولة من الزجاج والمرايا .

١ ـ الزخارف الهندسية على الرخام :

الرخام كما اسلفنا مادة أولية رئيسية استخدمها سكان العراق في اقسامه الشمالية واتخذوا منها المناطق والعقود

---

(٢١) الجنابي ، كاظم ، « بحول الزخارف الهندسية الاسلامية » ، سومر ، جـ ١ ـ ٢ ، م ٣٤ ، ١٩٧٨ ، ص ٤٥ .
(٢٢) حسن ، زكي محمد ، فنون الاسلام ، ص ٢٤٨ .
(٢٣) Creswell, K.A..A Short Account Early Muslim Architecture, p.75.
فكري ، احمد ، مساجد القاهرة ومدارسها « المدخل » ، ص ٤٤ .
(٢٤) حسن ، زكي محمد ، فنون الاسلام ، ص ٢٤٨ .
(٢٥) فكري ، إحمد ، مساجد القاهرة ومدارسها ، « المدخل » ، ص ٤٥ .
(٢٦) حسن ، زكي محمد ، فنون الاسلام ، ص ٤١ .
Crsrwell., Idid., p. 75
(٢٧) مهدي ، علي محمد ، الاخيضر ، ص ٣٠ .
(٢٨) مديرية الآثار القديمة ، حفريات سامراء ، جـ ١ ، ص ٣٧ ـ ٣٨ .
(٢٩) عبدالرسول ، سليمة ، الاصول الفنية لزخارف القصر العباسي ، ص ١٣ .
(٣٠) الاعظمي ، خالد خليل ، المدرسة المستنصرية في بغداد ، ص ٣٤ .
(٣١) حسن ، زكي محمد ، فنون الاسلام ، ص ٢٤٩ .

والمداخل والشبابيك وبلطوا به دورهم وزينوا به القسم الاسفل من ابنيتهم . ومن أكثر المدن العراقية استخداماً له هي مدينة الموصل ، حيث نقش الفنان وحدات زخرفية متنوعة الغالب منها بهيئة اشرطة ، معظمها يرجع في اصوله الى حضارة وادي الرافدين ، حيث نشاهد بعضها على المنحوتات الاشورية ، والحضرية ، وقد استمرت في العصور المتأخرة ممثله في العمائر الدينية والمدنية من العصر الاتابكي والايلخاني ، أبرزها نوع من الزخرفة الدقيقة اطلقنا عليها اسم « الزخرفة المنقورة » التي تعتمد على ازالة بعض الاجزاء من الرخام باحداث ضربات منتظمة مكونة اشكال رباعية في داخل كل شكل اربعة مثلثات تلتقي رؤوسها في الوسط الذي يمتاز بعمقه بينما الاطار الخارجي الذي يتألف من قواعد المثلثات بمستوي سطح الرخام في بعض البيوت منتظمة وفي البعض الآخر غير منتظمة بسبب الضربات العشوائية ، لان القصد كان ملء الفراغات وعدم ترك سطوح ملساء تولد الملل في نفوس أهل البيت .

يعتبر هذا النوع من الزخارف من أكثر الزخارف استخداماً في البيوت العراقية في القسم الشمالي من العراق ، ويكاد لا يخلو أي بيت فيه منها مع التباين في دقة صناعتها ، حيث صنعت منها اشرطة تحيط بالابواب والشبابيك والدخلات وعقود الاواوين وتعلوها ، كما هو الحال في بيت زياد الجليلي و « مصطفى التوتنجي » و « فرنكول » و « ايليا جمعة » ... وعدد آخر من البيوت واستخدمت في كل من اربيل وكركوك في نفس الأماكن ولنفس الغرض . هذا ولم يقتصر استعمالها على الاشرطة ، فكانت تصنع منها اشكالاً اخرى بهيئة عصا معقوفة . ومجموعة من العقود فوق الابواب والشبابيك والدخلات . بعضها مدبب والبعض الآخر نصف دائري ، وفي بيوت اخرى بهيئة عقد ثلاثي يستند في الجانبين على أعمدة من نفس الزخرفة (شكل ١٥) .

ومن العناصر الزخرفية الاخرى مربعات واشكال رباعية تتصل برؤوسها في الجوانب بعضها مزين بنفس الزخرفة والبعض الآخر مجرد .

وتعتبر الاشكال الخماسية البارزة ، وانصاف النجوم ذات الاثني عشر رأساً ، التي تشبه زهرة الاقحوان . من العناصر البارزة التي تتكرر في كثير من البيوت . وكذلك الدوائر المتقاطعة نلاحظ وجودها في عدد من البيوت منها بيت « مصطفى التوتنجي » . وهناك عنصر لم نشاهده في بيت اخر سوى بيت « التوتنجي » قوامه دائرة ذات محيط قليل البروز يتوسطها شريطان متقاطعان بهيئة علامة (×) وقد ملئت الفراغات المحصورة بين محيط الدائرة الداخلي والزوايا الناتجة ، نصف زهرة اقحوان يعلوها ورقة ثلاثية .

ومن خلال تجوالي في محلة « شهر سوق » التي تضم مجموعة من

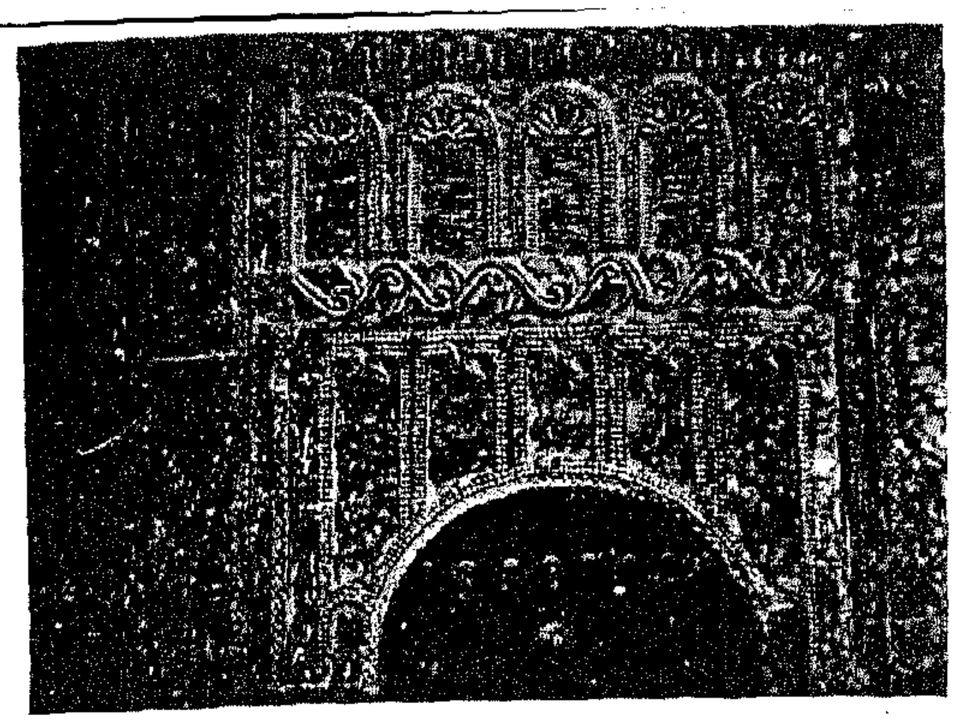

(شكل ١٥)

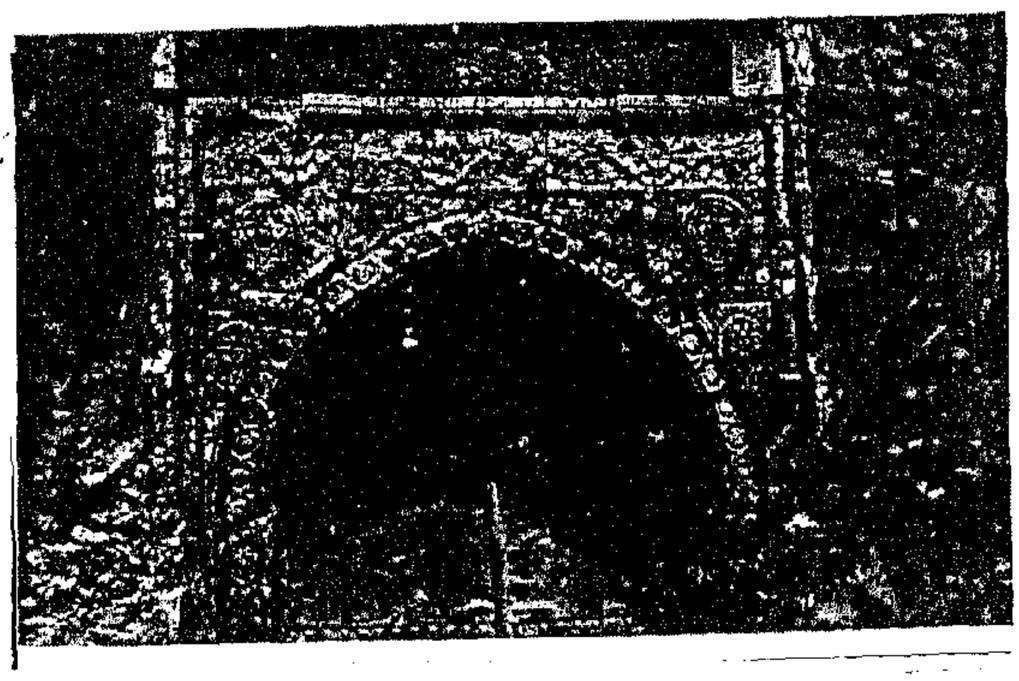

(شكل ١٦)

بيوت الجليلي ، شاهدت عددا من الابواب الكبيرة يعلو كل منها عقد مدبب من الرخام زينت واجهته بشريط من الاشكال السداسية المتتابعة . يتوسط كل شكل زهرة اقحوان . وعلى جانبي كل عقد نلاحظ وجود دائرتين تتوسط كل منها نجمة سداسية (شكل ١٦) .

وفي مدينة كركوك لاحظنا وجود بعض الاشكال الهندسية تحف ببعض الابواب وتمتد فوقها . منها الباب المفضي الى الايوان في بيت « علي أغا » قوامها شريط من المثلثات يحيط بالباب من جهاته الثلاثة ويستمر الجانبيان حول الزخرفة التي تعلو الباب . وينتشر بين الاشكال التي تتوسطها أشكال رباعية تتوسطها نجوم رباعية . وفوق هذه الزخرفة نلاحظ وجود شريط زخرفي . تمتد اعلاه واسفله عقود نصف دائرية تنحصر بينها دوائر صغيرة تتوسطها اشكال نجمية بهيئة وريدات صغيرة كما في بيت « علي اغا » . ومن الزخارف المنقورة في كركوك . دوائر صغيرة تتوسطها أشكال نجمية ووريدات ثم اشكال آنية ذات بدون كروي تتوسطه نجمة سداسية . كما في بيت « علي أغا » و « صديق العلاف » و « ميكائيل » وغيرها من البيوت أما في

وسط العراق وجنوبه فالامثلة قليلة وتكاد تكون نادرة ، حيث أننا لم نعثر في البيوت التي قمنا بزيارتها على نماذج يمكن الاعتماد عليها .

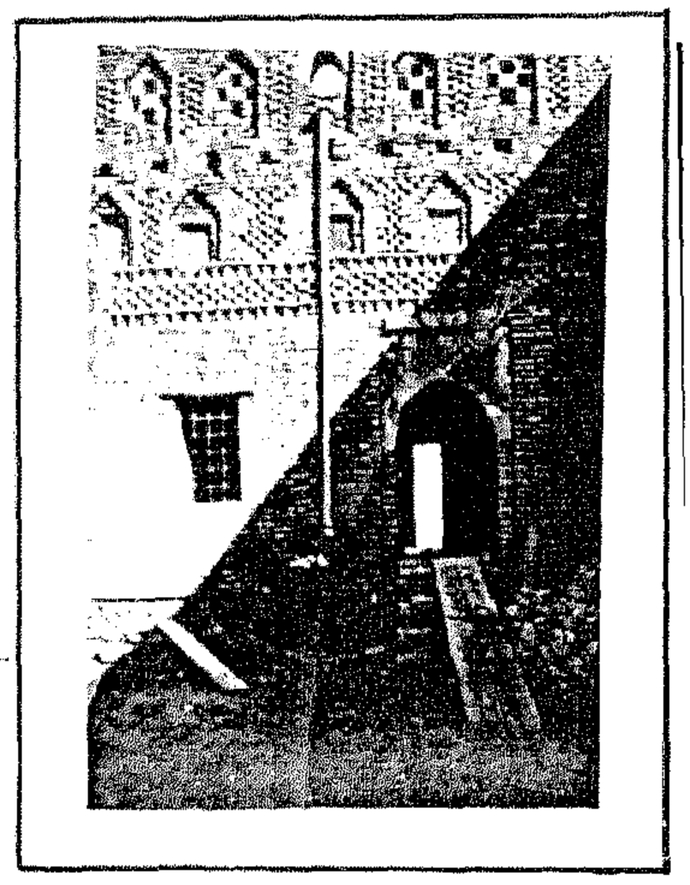

(شكل ١٧)

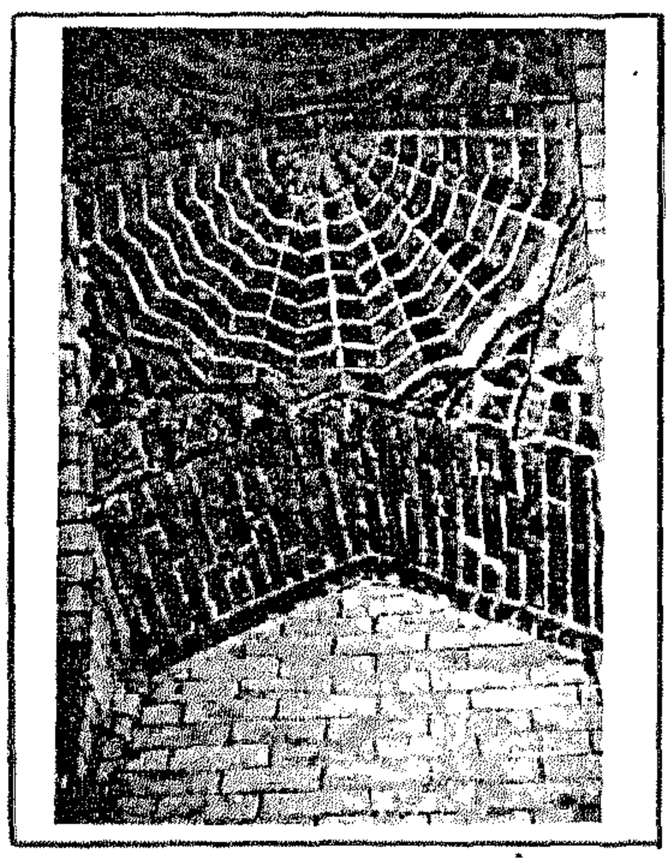

(شكل ١٨)

٢ ـ الزخارف الهندسية على الآجر :

الاجر من المواد البنائية التي إستخدمها العراقيون منذ أزمان بعيدة ، خاصة في المناطق التي تفتقر الى مادة أخرى كالحجارة ، وتتوفر فيها مادة الطمى الطينية الجيدة التي صنعت منها مادة الاجر ، التي إستعملت كمادة رئيسية في البناء والزخرفة في جميع العمائر ، وذلك لسهولة الحصول عليه ، وان إستخدام الاجر هو الذي صرف البنائين عن تزيين العمائر بالحليات العمارية المجسمة كما هو الحال في العمائر المبنية بالحجارة . وان هذا الاستعمال كان اما بالحفر عليها او جعلها بارزة او تغيير وضعية قطع الاجر مكونة أشكالا هندسية ، وهذا تقليد أتبع في العمائر العراقية الاسلامية كالمدرسة المستنصرية والقصر العباسي والمدرسة المرجانية(٣٢) .

يتميز الاجر بمرونته وانصياعه لرغبة البناء الحاذق في تشكيل أعقد التأليفات الهندسية والزخارف النباتية . . . ويستطيع البناء عن طريق هذه المادة تبديل الاتجاه في السقف من الاشكال المستقيمة والزوايا القائمة الى الاقواس والحنيات والعقود المشتركة ، إضافة إلى أنه بطبيعة تكوينه المادي يتمتع بالخفة والهشاشة التي يفتقر اليها الحجر(٣٣) ، إضافة الى كونه مادة يسهل تقطيعها وتهذيبها ونحتها ونقش العناصر الزخرفية عليها . لهذا نرى الاقدام على إستعماله كمادة للبناء وعمل الزخارف الجميلة ، وقد إتبعت في هذا المجال عدة طرق منها « إنحراف متعاكس لصفوف الاجر نتج عنها تزينات وحيدة اللون ذات درجة واحدة ، او عن طريق تناوب الاجر بصورة غائرة ونافرة مؤلفة زخرفة وحيدة اللون لكنها ذات درجتين لونيتين ، او عن طريق تضمينه كل صفين من الاجر الزهرى اللون صفا ذا لون اخف حدة وحافلا بالصيغ المشكلة ، فيظهر من ذلك مظهر ذو لونين . ومن الامثلة على ذلك التجويفات التي تحيط بالفناء الاوسط من قصر الاخيضر والتي تنتهي في أعلاها بحنايا معقودة ومزخرفة بزخارف أجرية موضوعة في أشكال مختلفة(٣٤) . وتقطيع الاجر الى أجزاء صغيرة ذات أحجام وأشكال تؤلف من مجموعها شكلا هندسياً تكون بارزة عن سطح الجدار تارة وبمستوى سطح الجدار تارة أخرى . هذا وقد يسرت أبعاد الاجرة الواحدة مهمة المعمار للخروج بتشكيلات زخرفية قوامها التصرف بهذه الابعاد بشكل فني الا انه بقي في كثير من الاحيان اسيراً لهذه الابعاد(٣٥) . وتكاد مدينة أربيل تنفرد عن غيرها من المدن الشمالية بإستعمال الاجر في البناء والزخرفة . وكان الطابع الهندسي هو الطاغي ، والتشكيلات الفنية وحدتها الاجرة الواحدة ، فنجد بعض بيوت قلعة أربيل تمتلك عناصر زخرفية متنوعة والاجرية منها نلاحظها تزين القسم العلوي من الجدران الخارجية على شكل كوي صغيرة مربعة وبعضها مستطيلة الشكل ، وفي الستارة تكون هذه الكوى نافذة لغرض وصول الهواء الى السطح ، حيث كان يستخدم للنوم صيفا ، وقد إتخذت هذه الكوى والنوافذ أشكالا هندسية ذات طابع خاص ، إمتازت

---

(٣٢) العزى ، نجلة إسماعيل ، « والطراز الفني والعمراني في القشلة والسراي » ، مجلة سومر ، م ٣٤ ، جـ ١ ـ ٢ ، السنة ١٩٧٩ ، ص ٢٣٣ .

(٣٣) مكية ، محمد ، « الدور البغدادية والتراث السكني » ، ص ٢٣٤ .

(٣٤) يوسف ، شريف . « الزخارف والزينة في العمارة العربية الاسلامية » ، مجلة الرواق . العدد الخامس . ١٩٧٥ . ص ٥ .

(٣٥) العطية . زهير ، « الاعمال الجصية في حوض شمال العراق » ، مجلة آفاق عربية . عدد ٣ . ١٩٧٥ . ص ٨٦ .

به مدينة أربيل دون غيرها من المدن العراقية (شكل ١٧)

اما في وسط العراق وجنوبه فنلاحظ وجود أعقد التأليفات الهندسية تمتد فوق الأبواب والشبابيك والدخلات والحنايا وسقوف بعض الدهاليز والحمامات والسراديب. ومن الامثلة على ذلك ما نشاهده في كل من بيت « الاسترابادى » و « الشهربلي ». و « عبدالرحمن النقيب » في بغداد. وبيت « الحاج مخيف الشخير » في النجف. وبيت « الوالي » و « الشيخ خزعل » في البصرة (شكل ١٨).

والستارة لا تخلو من بعض الزخارف فنرى في بعض البيوت ومنها الحاج مخيف الشخير، الذي إستخدم فيها آجر مربع الشكل بوضعيات مختلفة جعل منها شكلا يشبه حياكة الحصير. وهذا ما نراه في كثير من بيوت النجف وكربلاء.

٣ ـ الزخارف الهندسية على الخشب :

يمثل الخشب إحدى المواد الاولية التي كانت وما زالت مستخدمة في البناء والزخرفة فقد إستخدم في زخرفة واجهات الشبابيك الخارجية واعطاها تصاميم متنوعة وهي ما تسمى بالشناشيل، وجعل من واجهات الشبابيك المطلة على الفناء نسيجا خشبيا في غاية الدقة والاتقان متضمنة تشكيلات هندسية أو نباتية أحيانا مطعمة بالزجاج الملون أو المرايا أحيانا[٣٦]. وأعطى للابواب طابعاً مميزا في وحداته التشكيلية وسطوحه وتكويناته الهندسية وأضاف إستعمال المطارق والمسامير الحديدية سمه جمالية خاصة الى هذه الابواب[٣٧]. وهذا ما شاهدناه في عدد كبير من البيوت التي قمنا بزيارتها في شمال ووسط وجنوب العراق متمثلة بسقوف إحدى غرف بيت الجليلي في الموصل الذي قسم إلى وحدات زخرفية بهيئة مستطيلات أطارها الخارجي يتألف من وريدات صغيرة ذات الوان مختلفة. ويتوسط السقف طرة ذات زخارف متحانة بتناغم جميل مع السقف وكذلك الابواب. وفي أربيل تكاد معظم سقوف البيت باستثناء السراديب والمداخل وفي حالات قليلة **الاروقة** كما في بيت « جميل أفندي ». تكون مغطاة بالخشب المزين بزخارف هندسية ذات نقشة واحدة. تغطي جميع السقف تتوسطها في بعض البيوت قبة خشبية مخروطية الشكل مزينة جوانبها بزجاج ملون ذي اشكال هندسية مختلفة. والابواب الغالب فيها مزين بالمسامير الحديدية. وبعضها وخاصة أبواب غرف الضيوف تظهر على بعضها أعمال الحفر والتطعيم باشكال هندسية ونباتية كما هو الحال في بيت « رشيد أغا » وبيت « بيربال أغا » وعدد آخر من البيوت. والعمود الخشبي ذو التاج المربع المقرنص الجوانب

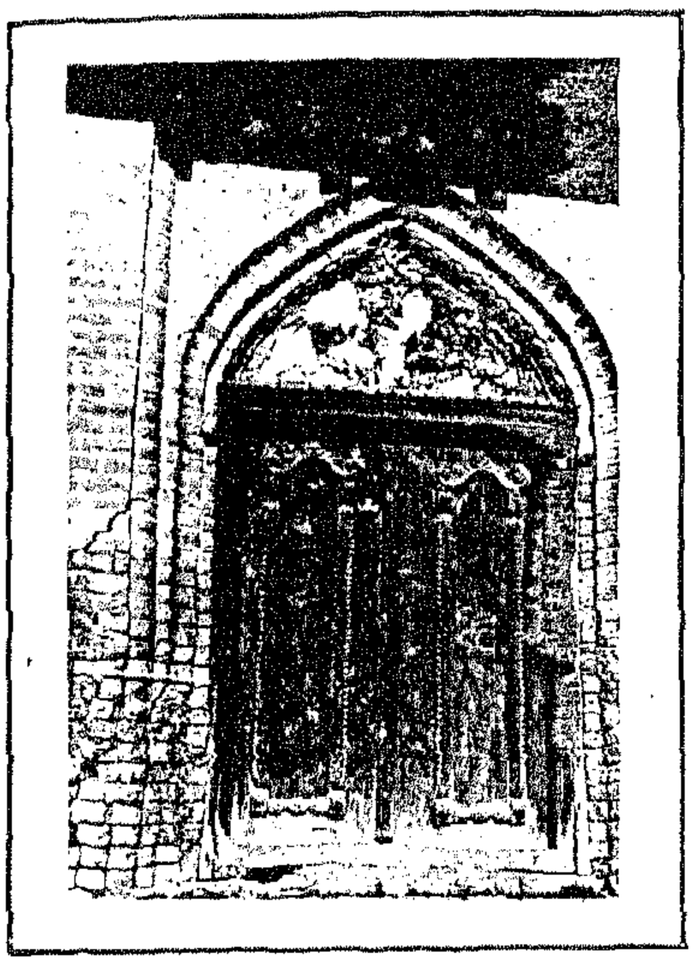

(شكل ١٩)

الذي تستند عليه سقوف بعض الاورقة والشرفات فهو على غرار الموجود في النمط البغدادي ولكن بمستوى فني أبسط[٣٨]. كما في بيت « مصطفى التوتنجي » و « عبد الله يوسف » في الموصل وبيت « عبدالله أغا » و « جميل أفندي » في أربيل. هذا إضافة إلى أبواب بعض الدواليب ذات الاشكال الهندسية البسيطة التي لا تخلو منها أي دار في المنطقة الشمالية.

اما في وسط العراق وجنوبه إستخدم الخشب بكثافة أكثر وخاصة في مدينة بغداد. حيث كانت الواجهات المطلة على الفناء تمثل نسيجا خشبيا غاية في الدقة والاتقان. متضمنا تشكيلات هندسية كما في بيت « الاسترابادى » ونباتية تتوسطها بعض الاشكال الهندسية كما في بيت « الشهربلي ». وهي مطعمة بالزجاج الملون والمرايا. وكذلك الشبابيك الداخلية في نفس البيتين السابقين وبيوت أخرى. والاعمدة الخشبية الرشيقة ذات التيجان المربعة والمقرنصات الجميلة تزخر بها بيوت بغداد صغيرها وكبيرها. والابواب في بغداد كان لها طابع مميز في وحداته التشكيلية وسطوحه وتكويناته الهندسية وقد أضفى إستعمال المطارق والمسامير الحديدية سمة جمالية خاصة الى هذه الابواب (شكل ١٩).

وبيوت النجف لا تقل روعة وجمالا عن بيوت بغداد. لكنها أقل كثافة من حيث إستخدام الخشب وإختلاف بسيط في عمل الزخارف ومن أحسن الامثلة مانشاهده في الواجهات الداخلية والسقوف الخشبية ذات الزخارف الهندسية والنباتية والزجاج الشفاف الذي يزين وسط الغرف بشكل طرة مزججة ذات

---

(٣٦) العطية. زهير. « جماليات النمط البغدادي في العمارة ». الرواق العدد ٣. تموز ـ اب ١٩٧٨. ص ١١.

(٣٧) العطية. نفس المصدر. ص ١١.

(٣٨) العطية. زهير. « المعالم الجمالية في البيت شمال العراق » الرواق. « العدد ٤. أيلول. تشرين الاول ١٩٧٨. ص ١١.

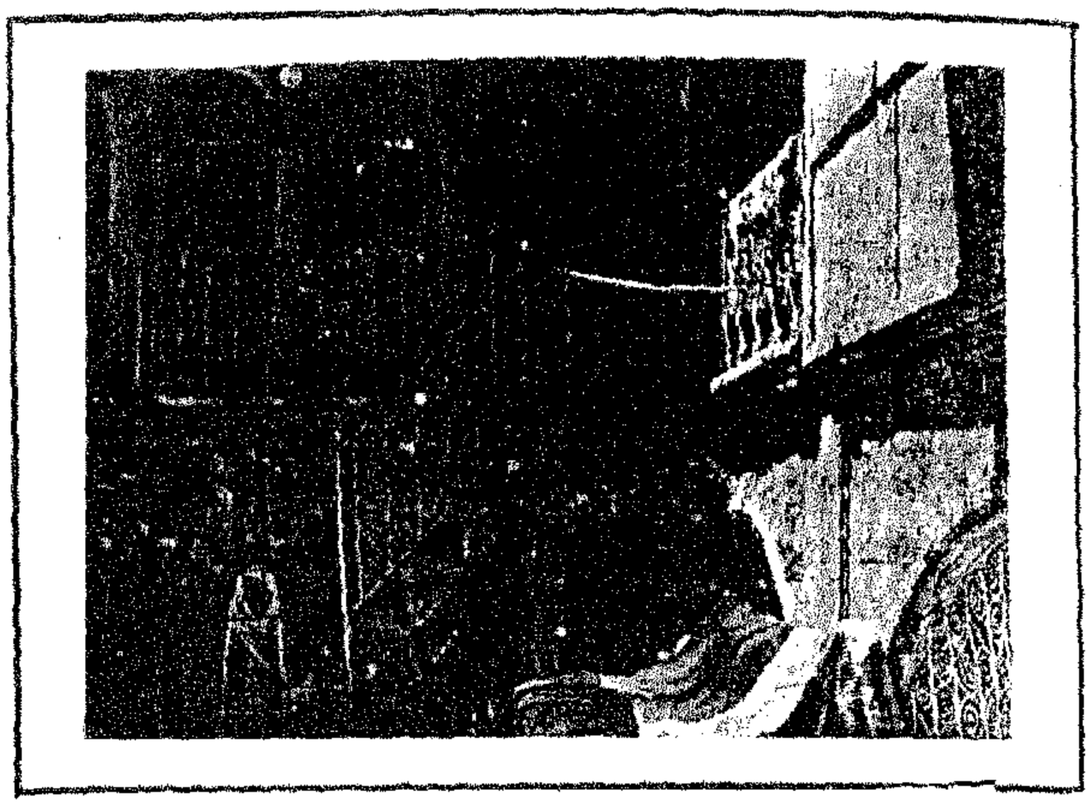

(شكل ٢٠)

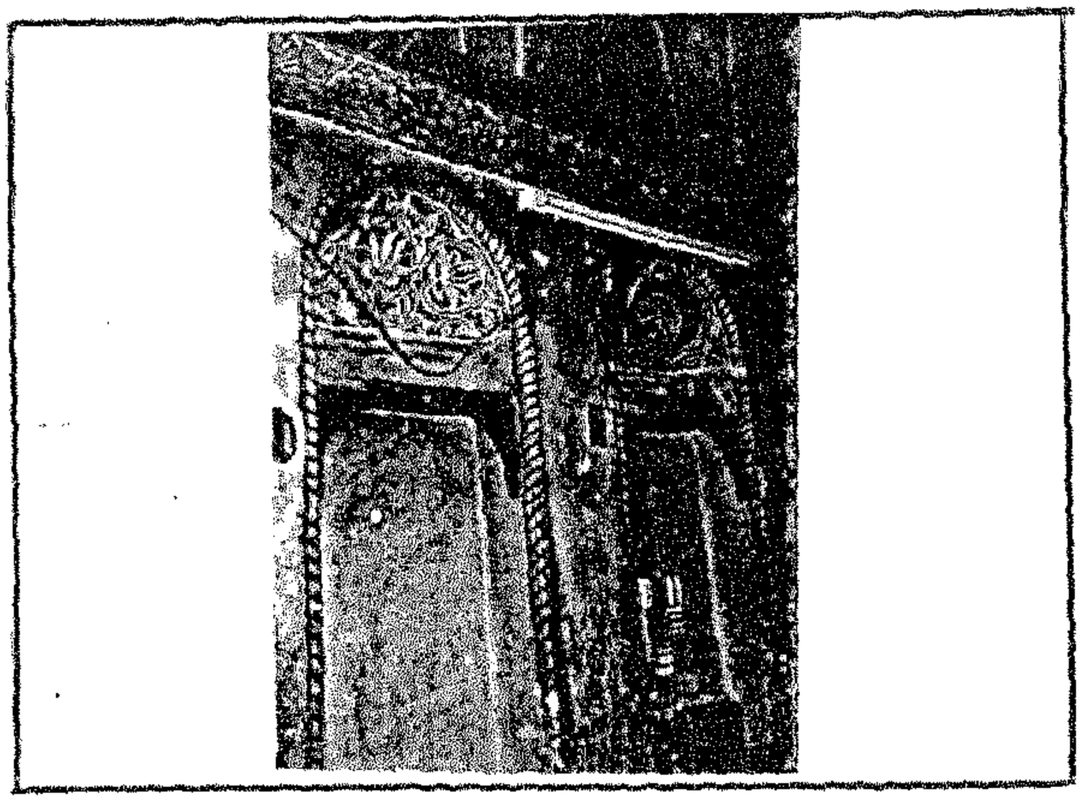

(شكل ٢١)

أشكال نباتية مرسومة بالالوان يتوسط بعضها كتابات . وسقف الغرف يتألف من متوازي الأضلاع يحيط بالطرة ويكبر كلما إبتعدنا عن المركز حتى يتلاشى في الجوانب عند الجدران (شكل ١٣ ، ١٤) .

ومما تجدر الاشارة اليه هنا هو ان بيوت بغداد والبصرة ذات واجهات خشبية مزججة دقيقة الصنع ومتنوعة الزخارف ، وفي النجف تتألف الواجهة من عدد من الأبواب تمتد على طول الجدار ، تعلوها زخارف بهيئة فروع نباتية يتوسط البعض منها طيور متقابلة . اما المنطقة الشمالية فنلاحظ إفتقارها الى مثل هذه الواجهات الخشبية المزججة او الابواب الخشبية . والسبب على ما نعتقد هو قلة الاخشاب وإرتفاع ثمن ما يصلح لعمل مثل هذه الواجهات ، وكثرة سقوط الامطار ، وأخيراً ضخامة الكتلة البنائية جعلتهم يعرضون عن إستعمال الخشب ويميلون الى الحديد الذي نلاحظ كثرة إستخدامه في عمل الشبابيك والمحجرات (شكل ٢٠) .

٤ ـ الزخارف الهندسية على الجص :

استخدم الجص في البيت العراقي كمادة بنائية رئيسية ، في ربط صفوف الاجر أو الحجر ، وتغطية السطوح المبنية بها في المنطقة الشمالية بدلاً من الطين ، وبخاصة الانواع الخشنة التي يقل تأثير الامطار عليها بسبب صلابتها وتسمى في الموصل « الزكور »[٣٩] واستخدم ايضاً كأرضية لعمل الزخارف البارزة ولرسم بعض الاشكال النباتية والهندسية بالوان متعددة الغالب فيها « الازرق (النيلي) ، الذهبي ، الاخضر ، الاصفر » . وتعتبر المنطقة الشمالية من أغنى المناطق في الاعمال الجصية التي عمت منطقة سامراء وتكريت منذ أزمان بعيدة ، وانتقلت الى الموصل ومنه إنتشرت الى بقية أرجاء المنطقة ، وقد شاهدنا الكثير منها في مدينة الموصل تزين داخل الغرف بهيئة كوى صغيرة ينتهي قسمها الاعلى بتقوسات أو حنايا ، تعلوها أنصاف قباب زين باطنها بزخرفة جصية بهيئة مناشير بارزة كما في بيت « الجليلي » ، لكنه على الرغم من هذا فان الاعمال الجصية في مدينة الموصل قليلة جداً اذا ماقورنت بمنطقة شمال الفرات التي استخدمت الزخارف الهندسية بشكل رئيسي فيها ، في حين تعدتها الموصل الى الزخارف النباتية . وقد استخدم لهذا الغرض الرخام الازرق [٤٠] .

وأربيل من المدن الشمالية التي تمتاز بكثرة الاعمال الجصية فيها ، منها كوى صغيرة متجاورة تمتد بمحاذاة السقف ، يتقدمها رف صغير من الجص المسلح بالقصب . كما في بيت « فتح الله اغا » و « رشيد اغا » ، لكن يمكننا اعتبار السطوح الجصية المستوية من اكثر المناطق التي نشاهد عليها مجموعة كبيرة من الزخارف مرسومة بالالوان منها هندسية ونباتية وكتابات ، والهندسية بهيئة مربعات ومستطيلات ومعينات ومثلثات ودوائر متقاطعة تتوسطها اشكال نباتية ، ودوائر مستقلة تتوسطها كتابات ، اضافة الى الاشرطة التي تتوسطها نجوم سداسية متتابعة ومتصل في جوانبها ، واخرى منفردة عملت بشكل بارز من الجص وغطيت بقطع من المرايا حسب الاشكال المطلوبة كما في بيت « رشيد اغا » في اربيل . وفي كركوك تتكرر نفس الاشكال ، الا ان العنصر النباتي هو الغالب . اما الاشكال البارزة فهي قليلة اذا ماقورنت بالاشكال المرسومة بالالوان منها

---

(٣٩) زكور : الجص المتحجر المتخلف من هدم البناء . ومنه يصنع الجص ثانية ، وبه تغطى سطوح البيوت وترصف به الارضيات . (البكرى ، حازم ، دراسات في الالفاظ العامية الموصلية ، ص ٢٤٦ .

(٤٠) العطية . زهير « الاعمال الجصية في حوض شمال الفرات » . مجلة آفاق عربية . العدد ٣ . لسنة ١٩٧٥ . ص ٨٦

بعض الاشكال المنشورية التي تزين بواطن بعض أنصاف القباب التي تعلو الدخلات والشبابيك من الداخل (شكل ٢١).

اما في وسط العراق وجنوبه فالزخارف لها طرازها الخاص وهي تختلف عما هو سائد في الشمال بسبب اختلاف المادة، والزخارف الجصية تكاد تكون معدومة، بسبب ارتفاع نسبة الرطوبة والاملاح التي جعلت الناس يعرضون عنها والاتجاه الى الزخارف الاجرية.

٥ ـ الزخارف الهندسية المعمولة من الزجاج والمرايا:

كان للاعمال الزجاجية دوراً هاماً في تحديد هوية وطابع البيت العراقي وذلك من خلال دوره في الوظائف المناخية والاجتماعية والجمالية للبيت[٤١]. ويلعب الزجاج الملون دوراً حيوياً في السيطرة على مقادير أشعة الشمس المتسربة الى الداخل، محققاً بذلك معالجة واقعية، لما يعانيه أهل بغداد والمناطق المشابهة لها من قوة أشعة الشمس وشدة حرارتها في فصل الصيف. وقد ساعد إستخدام الزجاج الملون ضمن الاطارات الرقيقة في النوافذ، على إفساح المجال للمرأة بأن تكون على تماس بالحياة العامة دون أن تتعرض لمشاهدة الرجل لها، واخيراً ان الزجاج المستخدم في النوافذ ساعد على إضفاء جو من الشاعرية والرقة على جوانب المسكن، اضافة الى استخدامه كمادة أساسية أو كخلفية للرسم[٤٢]. لهذا يمكننا إعتبار الاعمال الزجاجية علامة مميزة تميز البيت البغدادي عن سائر البيوت في العراق ومنها بيوت المنطقة الشمالية، والتي يعود ضعف الاعمال الزجاجية الى الاسباب التالية:

١ ـ ان اشعة الشمس وحرارتها أقل وطأة في المنطقة الشمالية.

٢ ـ عدم الرغبة في الاكثار من الواجهات والنوافذ الخشبية في المنطقة الشمالية للحاجة الماسة الى مواد أكثر صلابة كالحديد والحجر لمقاومة الظروف المناخية القاسية، بسبب الرياح والامطار والثلوج.

٣ ـ ان البيئة في المنطقة الشمالية، وهي بصورة عامة أكثر غنى بالالوان وبالتنوع الطوبوغرافي، مما هي عليه في المنطقة الوسطى والجنوبية الامر الذي يقلل من الحاجة والتطلع الى اجواء شاعرية داخل المسكن[٤٣].

ونتيجة للاسباب السابقة الذكر نرى التفاوت واضحاً في استخدام الزجاج والتنوع في شكل القطع الزجاجية الملونة والشفافة وقطع المرايا. فالزجاج الشفاف كان مستخدماً كقاعدة لرسم الاشكال النباتية والهندسية، اما الزجاج الملون والمرايا فقد استخدمت في استكمال الاشكال النباتية والهندسية في السقوف التي يحدد ابعادها شكل الاطارات الخشبية الموضوعة لهذا الغرض[٤٤]. وبموجب هذه الاساليب استخدم الزجاج في تغليف سقوف الغرف والاروقة والشرفات والاواوين في الطابقين، عن طريق ملء المساحات المنتظمة التي يتركها الاطار والتشكيلات الخشبية المرتبطة بالسقف التي تغطي القطعة الوسطية فقط، أو مجموع ساحة السقف (شكل ١٢، ١٣).

لقد استخدم الزجاج في البيت العراقي وفق أساليب معينة وفي أماكن خاصة منها الشبابيك الخارجية والداخلية لملء الفتحات الخشبية للشباك ضمن التشكيلات الهندسية المعتمدة، كما في بيت «عبد الامير عبيدة» في الكاظمية.

وتجمع بعض الشبابيك بين الزجاج الملون ذو الطابع الهندسي وبين الزجاج الشفاف بحيث تحقق الاقسام الملونة والاطار المحيط بالزجاج التجانس والانسجام بين الالون كما في بيت «الاسترابادي» في الكاظمية.

ومن الاستعمالات الاخرى هو تطعيم الجص بالزجاج الملون والمرايا، حيث تكسو بعض جدران الغرف لتكون اشكالاً هندسية أو نباتية، وبصورة خاصة تلك التي غرزت بالعقود والحنايا وباشكال المحاريب، وفي معظم الحالات تكون أشكال القطع منتظمة وذات اشكال هندسية، كما كان يطعم الزجاج الملون بالمرايا لتكسب المكان بريقاً خاصاً، كما في بيت «الشهربلي».

لقد أدخلت المرايا والزجاج الملون في تصميم الشبابيك المطلة على الفناء، وفي تصميم السقوف بصورة تتناسق مع الاشكال الهندسية والنباتية لا كالواح كبيرة، وانما كقطع زخرفية دقيقة رائعة وهذا واضح في غرف الضيوف في كل من بيت «الاسترابادي» و «الشهربلي» و «السيد عبدالرحمن النقيب» في بغداد ونتيجة لارتفاع سعر الزجاج حينذاك وتجنب كسره، اضافة الى الاعتقاد بان الشباك يكون اكثر تماسكاً، حيث كان الزجاج يربط اثناء صنع الشباك وباشكال هندسية مختلفة، العنصر الغالب فيها الاشكال النجمية والدوائر المتقاطعة، فاذا كسرت زجاجة يجب فتح الشباك وانزاله وتفكيكه لتبديل تلك الزجاجة مثال ذلك بيت «الاسترابادي».

إن تجميل الشبابيك بهذه الطريقة كان شائعاً في أوربا في العصور الوسطى. وخاصة في الكنائس، وقد أنتقل الى اسطنبول

---

(٤١) العطية، زهير، «المعالم الفنية في البيت البغدادي»، مجلة آفاق عربية، العدد ٤، لسنة ١٩٧٥، ص ١١٢.

(٤٢) العطية، زهير، «المعالم الفنية في البيت البغدادي» ص ١١٢.

(٤٣) العطية، نفس المصدر، ص ١١٣.

(٤٤) العطية، نفس المصدر، ص ١١٣.

(٤٥) Jovan, Artiucle in "Sumer", Vol. 18, P. 44

Krunik,

ومنها الى بقية املاك الدولة العثمانية ، وهذا الطراز من الزخرفة يطلق عليه اسم « الروكوكو »[٤٥] .

الزخارف الكتابية

أن استخدام الكتابات القرآنية والتذكارية والحكم والامثال والابيات الشعرية على جدران الابنية واعلى الابواب والشبابيك وفي الجامة التي تتوسط سقوف الغرف ، لم يقصد بها كوسيلة للتبرك بالايات القرآنية أو العبارات الدعائية أو تخليد ذكرى الاشخاص أو تحديد التاريخ فحسب ، وانما كان يستخدم كعنصر زخرفي ابتكره الفنان المسلم واصبح يلعب دوراً هاماً ، حتى اصبح ميزة مهمة من ميزات الفنون الاسلامية[٤٦] . والخط العربي مادة هذه الكتابة واحد عناصر التراث العربي المهمة ، فهو في تنوع اشكاله ، ومجالات استعماله يتجاوز الحاجات الثقافية الى الافاق الفنية ليصبح من ابر ز الفنون الزخرفية ، وان الكتابة لم تستخدم في الاثار والفنون كلها ، وفي جميع العصور كعنصر زخرفي مثل ما استخدمت في الاثارة الاسلامية[٤٧] .

لم يكن المسلمون اول من استعمل الكتابة في زخرفة العمائر والتحف وسائر الاثار الفنية فقد سبقهم الى ذلك اهل الشرق الاقصى ، كما عرفه الغربيون في العصور الوسطى ، ولكن ليس ثمة من استخدام الخط في الزخرفة بقدر ما استخدمه الفن الاسلامي ، اذ اننا نستطيع ان نتخذها اساساً وسبيلاً لتاريخ العمائر والتحف ذات الكتابات ، لان لكل عصر ولكل اقليم في العالم الاسلامي اسلوبه في الخط والزخرفة ، فيستطيع ذوو الخبرة ان يدرسوا الزخارف الكتابية وان ينسبوا البناء أو التحفة الى العصر أو الاقليم الذي صنعت فيه[٤٨] . فضلاً عن ذلك فإن اشرطة الكتابة الزخرفية توجد تنوعاً في الزخرفة وتبعد ما قد ينشأ من ملل بسبب سيادة عناصر زخرفية من نوع واحد سواء كانت هندسية ام نباتية[٤٩] . ولقد ورث العثمانيون هذا الخط وساروا به الى الامام خطوات واسعة حيث قلدوا كل ما كان معروفاً من صور الخط العربي ، وقد تجاوز الخطاط العثماني مرحلة التقليد الى مرحلة التحسين[٥٠] ، وبعد فإن فن الخط العربي لم ينل عند امة من الامم من العناية والتقدير بقدر ما ناله عند المسلمين عامة العثمانيين[٥١] .

ونتيجة لاهتمام العراقيين بساكنهم ، باعتبارها مكان راحتهم ، فقد اهتموا بعمارتها وزينتها وجعلها بما يناسب مكانتهم الاجتماعية وقدرتهم المالية ، لهذا نرى تعدد العناصر المعمارية والزخرفة ومنها الكتابات التي نشاهدها في مواضع كثيرة من البيت وبصورة خاصة في الاماكن البارزة ، كالاواوين ، وداخل بعض غرف الضيوف ، واعلى بعض الابواب . والمنطقة الشمالية اكثر مناطق العراق استخداماً للكتابة وبخاصة مدينة الموصل ، حيث نشاهد في اقدم بيوتها الذي يرجع تاريخه الى عام (١١٦١ هـ) يعود الى اسرة آل الجليلي . كتابة بارزة منقوشة على الرخام الابيض تمثل آية الكرسي ، بهيئة شريط يحف بجدران الايوان الغربي على ارتفاع حوالي ثلاثة امتار ، وقد كتب بخط النسخ ، وملئت الفراغات المحصورة بين الحرف بفروع نباتية تخرج منها اوراق صغيرة على مهاد ازرق ، وفي بيت « مصطفى التوتنجي » نلاحظ استعمال الكتابة بكثافة اكثر ، وهي تمثل ابيات من الشعر محفورة بشكل بارز على الجص وبخط النسخ على مهاد ازرق في الايوانين الشرقي والجنوبي وعلى الرخام الابيض في غرفة الضيوف الكبري وبنفس الخط . ويتوسط صدر الايوان الجنوبي بيت من الشعر يتكرر في عدد من البيوت منها بيت « فرنكول » نصه : (عز من قنع ذل من طمع) .

وفي بيت ايليا جمعة نلاحظ أن الكتابة تختلف ، فهي تمثل بغض الحكم والاقوال المأثورة تتصدر النصف العلوي من الايوان ، وفي بيت زيادة نلاحظ وجود كتابة تتوسط النصف العلوي من الايوان الجنوبي وهي تتوسط مستطيلا يحيط بها اطار مزين بزخارف نباتية مرسومة بالالوان تمتاز بدقتها وجمالها ، ويعلوها عقد خماسي تعلو قمته ورقة ثلاثية ، وتحف بالكتابة والزخرفة ساعتين جداريتين مرسومتين باللون الذهبي . اما الكتابة ، فالقسم العلوي منها نصها : « ما شاء الله »[٥٢] ، والسفلى « لا قوة الا بالله » ، (شكل ٢٢ ، ٢٣) .

واربيل من المدن العراقية التي نشاهد في بعض بيوتها نصوص

---

(٤٦) حسن ، زكي محمد ، فنون الاسلام ، ص ٢٣٤ .
(٤٧) فكري ، احمد ، مساجد القاهرة ومدارسها « المدخل » ، ص ٤٥ .
(٤٨) حسن ، زكي محمد ، المصدر السابق ، ص ٣٣٤ .
(٤٩) حسن ، نفس المصدر ، ص ٢٣٥ .
(٥٠) مرزوق ، محمد عبدالعزيز ، الفنون الزخرفية الاسلامية في العصر العثماني ، ص ١٧٦ .
(٥١) مرزوق ، يفس المصدر ، ص ١٨٧ .
(٥٢) وهي من العبارات التي كانت محببة الى نفوس العثمانيين ، والتي شاعت بينهم يرددونها في مناسبات شتى وينقشونها على الكثير مما اخرجته ايديهم .
(مرزوق ، محمد عبد العزيز ، الفنون الزخرفية الاسلامية في العصر العثماني ، ص ١٨٧) .

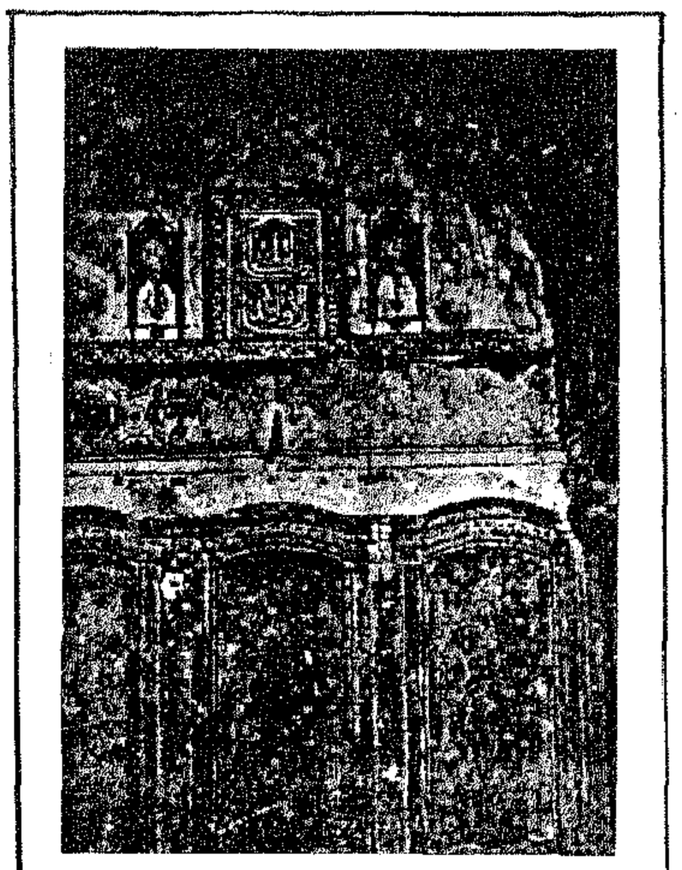

(شكل ٢٢)

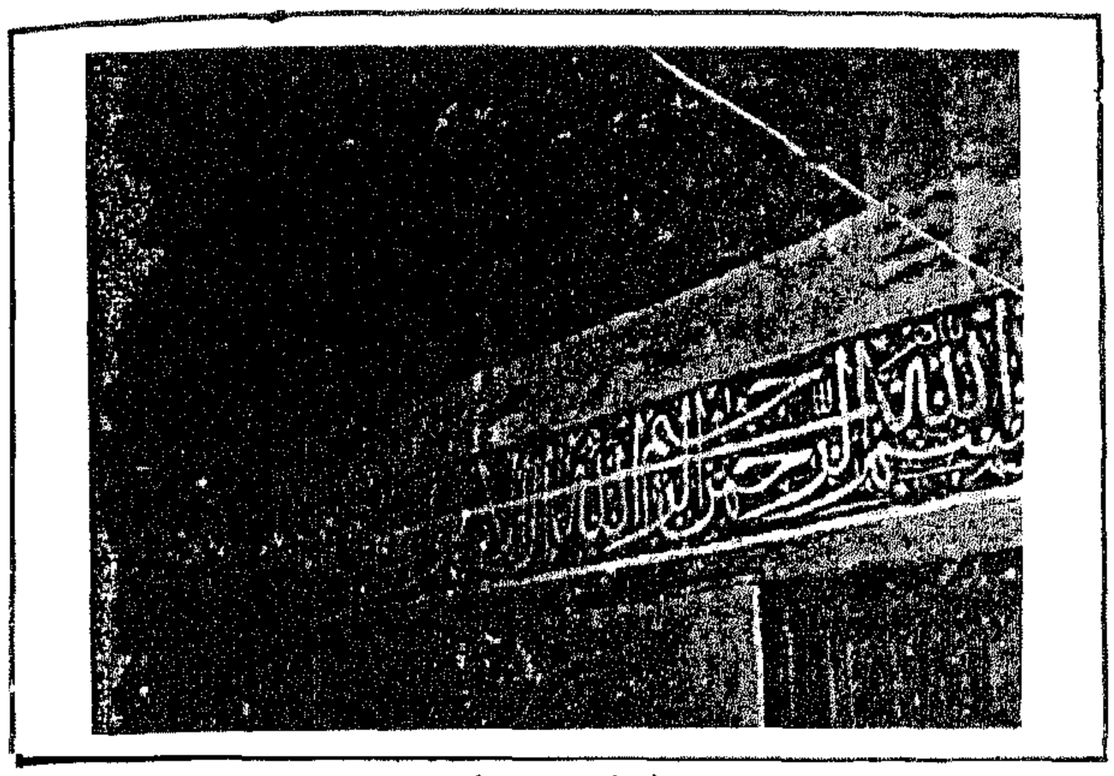

(شكل ٢٣)

كتابية مختلفة . منها ابيات من الشعر تتوسط الجدار الشمالية من غرفة الضيوف في بيت عبد الله اغا . وقد نقشت بشكل بارز على الرخام الابيض بخط النسخ . وتنتهي بذكر تاريخ الانشاء (١٣١١ هـ) . (شكل ٢٤) .

وفي بيت رشيد اغا توجد بعض العبارات المنقوشة بشكل بارز على الرخام الازرق فوق باب غرفة الضيوف نصها : « ما شاء الله » وفوق الباب المجاور نصها : « بسم الله . توكلت على الله » وهي تواجه الداخل الى غرفة الضيوف ويتوسط العبارتين الاولى والثانية في القسم السفلي تاريخ « ١٣٢١ هـ » وبين العبارتين الثانية والثالثة تاريخ اخر « ١٣٢٣ هـ » وقد احيطت الكتابة باطار مستطيل الشكل تزينه زخارف نباتية بارزة بمستوى الكتابة .

وتمتد بين الدخلات في القسم الاول المعترض من غرفة الضيوف كتابة باللون الازرق على سطوح حصية ملساء تمثل اسم الجلالة « الله » واسماء الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم . وعبارة « دخيلك يارسول الله »[٥٣] وهي تتوسط دوائر من نفس اللون تمتد بينها فروع نباتية واوراق صغيرة . ويحتمل وجود كتابات اخرى في بيوت اخرى لم يسعفنا الحظ الدخول فيها .

اما في مدينة كركوك فتكاد نفس العبارات تتكرر . وهي مكتوبة باللون الازرق تتوسط بعض انصاف القباب بها زخرفة نباتية محورة عن الطبيعة كما في بيت علي اغا . حيث دون تاريخ الانشاء في وسط نصف قبة تعلو المدخل الرئيس للجناح الشرقي . وفي صدر الإيوان أعلى الزخارف نلاحظ وجود كتابة نصها : « توكلت على الله » وفي بيت « صديق العلاف » توجد في صدر الايوان أعلى الزخارف كتابة نصها : « ما شاء الله » مرة بالشكل الصحيح ومرة بشكل معكوس . وتتكرر مثل هذه العبارات والتواريخ في بيوت أخرى من قلعة كركوك وفي نفس الاماكن .

تمتاز مدينة بغداد خاصة والمنطقة الوسطى بصورة عامة بقلة العناصر الكتابية إذا ما قورنت بالمنطقة الشمالية ولكن رغم هذا لاحظنا وجود بعض العبارات الدعائية مثل « في حرر الله » ، و « ماشاء الله » في بيت الشهربلي في بغداد محفورة على الاجر بشكل بارز تتوسط شكلا نباتيا يشبه زهرة اللالة . وتحيط بها مجموعة من العناصر النباتية الغالب فيها زهرة اللالة . وتحيط بها

مجموعة من العناصر النباتية الغالب فيها زهرة اللوتس المحورة

وفي مدينة النجف نلاحظ وجود إختلاف في الزخرفة الكتابية من حيث مضمونها والمادة المنفذة عليها . وهذا ما لم نشاهده في شمال العراق وجنوبه ومدينة بغداد . فعند مقدمة الجدار الغربي في بيت الحاج مخيف نلاحظ وجود مخزن يليه شبان خشبي دقيق الصنع تزينه قضبان حديدية صفت بشكل جميل . تحيط به زخرفة نباتية واشكال انية على القاشاني ، وتعلوه كتابة على القاشاني ايضا بخط النسخ منها : « هو الحي الباقي الذي لا يموت . هذا قبر الزعيم الكبير والمحسن الشهير صاحب الخيرات والمبرات الحاج مخيف تغمده الله برحمته وا ... » . وهذه تمثل شاهد قبر الحاج مخيف المدفون في الرداب داخل البيت . وفي داخل البيت تزين بعض الجامات الخشبية التي تتوسط سقوف بعض الغرف والاروقة والشرفات عناصر كتابية مكتوبة بالالوان على زجاج شفاف تمثل بعض اسماء الله الحسنى . وآل البيت رضوان الله عليهم وبعض العبارات الدعائية موزعة على جوانب بعض الجامات . وفي بعضها يتضمن تاريخ الانشاء . ويتوسط الجدار الجنوبي للغرفة الكبيرة في الطابق العلوي من الجناح الجنوبي حنية جميلة تعلوها كتابة جصية بارزة نصها « نصر من الله وفتح قريب » يعلوها رسم هلال ونجمة بالالوان .

اما في جنوب العراق فلم نعثر في البيوت التي قمنا بزيارتها

---

(٥٣) وجدت هذه العبارة مكتوبة في الاصل بالشكل التالي « دخي لك يارسول الله » .

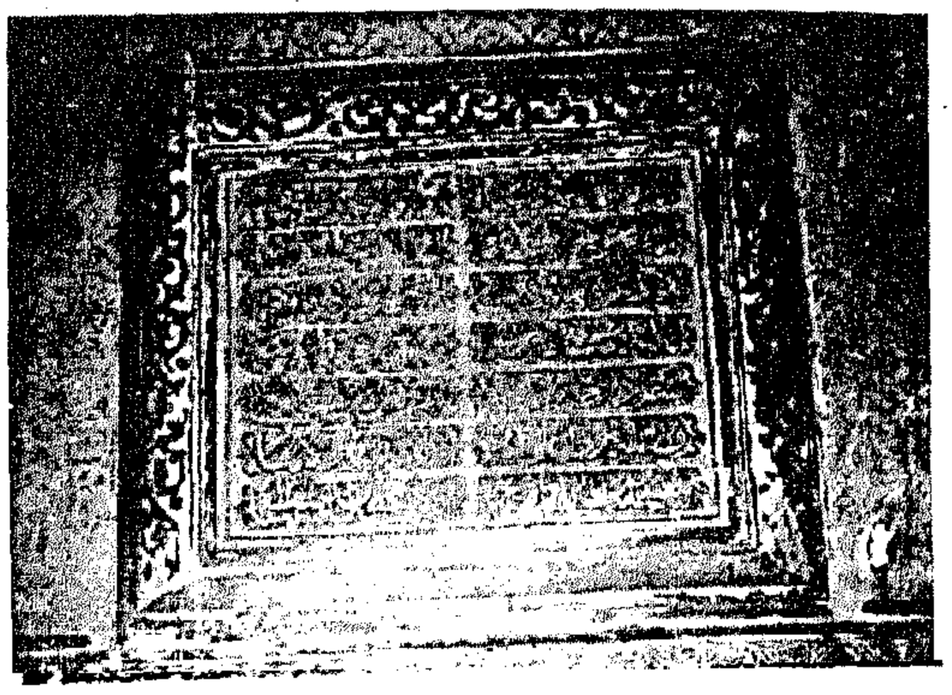

(شكل ٢٤)

على نماذج كتابية التي يحتمل وجودها في بيوت اخرى لم يسعفنا الحظ بزيارتها .

الزخارف الحيوانية

اشتهرت الفنون القديمة في الشرق الادنى ، بل وفي اسيا كلها باستعمال رسوم الحيوان في زخارفها ، والمعروف أن الفن البيزنطي اخذ القسط الاوفر من رسوم الحيوان فيه عن الفنون التي ازدهرت في ايران واشور وسوريا وبلاد الحيثيين، وكانت رسوم الحيوانات مما ورثته فنون الاسلام عن الفنون التي سبقتها في الشرق القديم ، وقد اقبل المسلمون على استخدام رسم الحيوانات في زخارفهم ، لعلهم لم يتمسكوا في شأنها بالاحاديث التي تحرم تصوير الكائنات الحية[٥٤] ، واستعمل المسلمون في زخارفهم رسوم الاسد والفهد والفيل والغزال والارنب والطيور الصغيرة بانواعها. وربما رسموها مع فرع نباتي يتدلى من منقارها أو حول رقبتها :.. كما رسموا الافاعي والحشيات والطيور المجنحة[٥٥] .

أن زخارف الكائنات الحية في الفن الاسلامي ، تحتوي على العناصر الادمية أو الحيوانية أو الطيور والاسماك أو اجزاء منها على هيئتها الطبيعية أو محورة عنها ... أو تشترك مع عناصر هندسية أو نباتية لاخراج موضوع زخرفي[٥٦] .

ومن ابرز الامثلة التي ما زالت الى الان ، الواجهة الحجرية الزخرفية لقصر المشتى التي نقلت الى متحف برلين والمحفوظة به الى الان[٥٧] .

أن الفنان المسلم لم يتجه الى محاكاة أشياء في الطبيعة ، وأنه عندما كان يرسم الكائنات الحية لم يكن يرسمها لذاتها وإنما كان يتخذ منها عناصر زخرفية يكيفها ويحورها بحيث يحقق اغراضه الجمالية البحتة ، ولهذا فقد أقبل المسلمون على إستعمال الاشكال الحيوانية في زخارفهم إقبالا شديداً حتى ظن انها لم تكن داخلة في نطاق الكراهية[٥٨] . وقد إستعملت في زخارف الخشب والجص والنحاس والحجر والنسيج والبلور والخزف... ويغلب أن توضع داخل أشكال ومناطق هندسية وتوزيعها على اساس التقابل والتدابر[٥٩] ومن المناظر التي تظهر على التحف الاسلامية ما يأتي :

١ ـ أشرطة بها طيور أو حيوانات ذات الاربع يتلو بعضها بعضاً .

٢ ـ حيوانان أو طائران متدابران أو متقابلان ، وبينهما رمز الى شجرة الحياة التي كانت معروفة عند الاشوريين ثم انتقلت منهم الى الفرس .

٣ ـ حيوان ينقض على حيوان أخر أو طائر اخر .

٤ ـ رسوم مجموعة من الطيور بشكل زخرفي[٦٠] .

ومن بين عناصر الكائنات الحية التي إنتشر استخدامها بين العناصر الزخرفية مثل : الحمام والطاووس والسمك وانواع أخرى من الحيوانات[٦١] . وقد اضيفت الطيور الى التيجان وخاصة اليمام أو الحمام لصلتها الرمزية بالمسيح[٦٢]

هذا ما كان منتشراً بين الفنون الاسلامية ، وقد إستمر إستخدام هذه العناصر الحيوانية في مختلف العصور الاسلامية حتى مجيىء العثمانيين الذين أعادوا الاتصال بين الطرازين الاسلامي والبيزنطي ببعضها ، عندما فتحوا مدينة القسطنطينية في عام « ١٤٥٣ م » وتأثروا بالتقاليد البيزنطينية التي ظلت مختزنة في تلك المدينة وأخذوا بعضها ليدخلوها مرة أخرى ضمن تقاليد الفن الاسلامي[٦٣] . ومن ابرز العناصر الحيوانية التي نلاحظ كثرة إستخدامها في العمائر العراقية وبخاصة البيوت المشيدة في العصر العثماني المتأخر ، ويمكننا تقسيمها من حيث مادة صناعتها الى ما يلي :

---

(٥٤) حسن ، زكي محمد ، فنون الاسلام ، ص ٢٥٣ .

(٥٥) حسن ، نفس المصدر ، ص ٢٥٣ .

(٥٦) شافعي ، فريد ، العمارة العربية في مصر الاسلامية ، جـ ١ ، ص ٢١٩ .

(٥٧) شافعي ، نفس المصدر ، ص ٢١٩ .

(٥٨) الالفي ، أبو صالح ، الفن الاسلامي ، ص ١١٧ .

(٥٩) الالفي ، نفس المصدر ، ص ١١٧ .

(٦٠) الالفي ، نفس المصدر ، ص ١١٧ ، الرفاعي ، أنور ، تاريخ الفن عند العرب ، ص ١٤٧ .

(٦١) شافعي ، فريد ، العمارة العربية في مصر الاسلامية ، جـ ١ ، ص ١٥٢ .

(٦٢) شافعي ، نفس المصدر ، ص ١٥٢ .

(٦٣) شافعي ، نفس المصدر ص ١٥٣ .

(شكل ٢٥)

١ ـ الزخارف الحيوانية على الرخام :

يمثل الرخام احدى المواد الاولية التي نفذت عليها عناصر رخرفية متنوعة منها العناصر الحيوانية التي نشاهدها اعلى مداخل البيوت والاواوين . ومن ابرز الامثلة على ذلك الحيات والافاعي التي نلاحظ وجودها حول كثير من المداخل وفي داخل البيوت تواجه الداخل الى البيت . ولعلهم كانوا يتيمنون بحفر صورتها لانهم يعتقدون أنها مشهورة بالحكمة[٦٤] . وقد ورد ذكر الحية في الآداب السومرية بأنها رمزاً للحياة والشفاء والطب[٦٥] . وهي تشاهد بهيئة حية واحدة أو حيتين كل واحدة تلتف حول نفسها وبلتقي رأسها في الاعلى ويتدلى ذنباها فى الاسفل . كما في بيت آيليا جمعة ، ومدخل الامام ابي الحسن والامام الباهر . وقد ينحتون حيتين متدليتين على ركني المدخل كما نجد ذلك في تكية الشيخ عدي بن مسافر الاموي والهكاري في جبل لالش في قضاء عين سفني[٦٦] . ويتكرر وجود الحيات والأفاعي في البيوت الموصلية لنفس السبب .

والاسد من العناصر الحيوانية الذي نلاحظ وجوده فوق احد أبواب البيوت القريبة من بيت زياد الجليلي في محلة شهر سوق ، بهيئة اسدين منحوتين بشكل بارز مربوطين بسلسلة ووجه كل منهما متجه نحو الامام . وبينهما شجرة صغيرة تشبه في منظرها العام شجرة الحياة الاشورية (شكل ٢٥) .

أما في بقية المنطقة الشمالية وبخاصة اربيل وكركوك لم نعثر في البيوت التي قمنا بزيارتها على عناصر حيوانية منحوتة على الرخام .

وفي مدينة بغداد عثرنا على نموذج واحد في بيت الشهر بلي يمثل رؤوس الطيور تزين اركان العمود الحلزوني الذي يتقدم ايوان الطابق الارضي (شكل ٧) .

إن استخدام الطيور في تيجان الاعمدة الرخامية وخاصة اليمامة أو الحمام لصلتها بالرموز المسيحية . لكن الذي نراه أن استخدامها في هذا البيت كان مجرد عنصر زخرفي القصد منه ابراز تاج العمود واعطاءه اهمية خاصة . وما عدا هذا البيت لم نعثر على نماذج لهذا النوع من العناصر في البيوت التي قمنا بدراستها في المنطقتين الوسطى والجنوبية .

٢ ـ الزخارف الحيوانية على الجص :

يؤلف الجص احدى المواد الاولية التى استخدمت كأرضية لتنفيذ بعض العناصر الحيوانية بشكل بارز او مرسومة بالالوان ، وهي تتفاوت من منطقة الى اخرى من حيث تعدد عناصرها وكثافتها . فنلاحظ ندرتها في مدينة الموصل لان الاتجاه كان نحو الاعمال الرخامية . ويكاد يقتصر عليها الا في حالات قليلة جدا تشمل بعض العناصر النباتية المرسومة بالالوان على سطوح ملساء . وفي مدينة اربيل على الرغم من كثرة العناصر الزخرفية المرسومة على الجص . الا أننا لم نعثر على عناصر حيوانية في البيوت التي قمنا بزيارتها ودراسة البعض منها . وهذا يوحي لنا بأن تأثير تحريم تصوير الكائنات الحية مازال معمولا به بسبب النزعة الدينية القوية في هاتين المدينتين .

اما في كركوك فالحالة تختلف بسبب وجود بعض العناصر الحيوانية المرسومة باللون الازرق « النيلي » على سطوح ملساء وبشكل بسيط في عدد من البيوت وبشكلها الطبيعي أو محورة عن الطبيعة . منها الطيور المرسومة بشكل بدائي وهي تشبه رسوم الاطفال كما في بيت « ميكائيل » قرب التكية . لكن الذي يجلب الانتباه هو رسم بعض العناصر النباتية بهيئة حيوانات منها « الافاعي » الاسماك . المرسومة من فروع نباتية بشكل رمزي . كما في بيت « علي أغا » و « ميكائيل) ومعظم البيوت المشيدة من نفس الفترة الزمنية وما بعدها .

ومن ابرز الامثلة في مدينة بغداد مانشاهده في بيت السيد « محمود الاسترابادي » من حيث الكثافة في استخدام العناصر الحيوانية بشكل قليل البروز . وبصورة خاصة الطيور الصغيرة منها والكبيرة . التي تزين داخل غرفتي الضيوف الشرقية

(٦٤) الديوه جي . سعيد ، « الزخارف الرخامية في الموصل » . ص ٤٧١ .

(٦٥) أن الحية بتأثير ذلك النبات السحري الذي اختطفته من كلكامش تجدد شبابها بنزع جلدها كل عام . ومن هذه الاسطورة نشأة عادة اتخاذ صورة الحية رمزا للحياة والشفاء والطب .
(باقر . طة . ملحمة كلكامش . الطبعة الثانية . ١٩٧١ . ص ١٤٤) .

(٦٦) الديوه جي . المصدر السابق . ص ٤٧١ .

والغربية وايوان الطابق العلوي ، مرسومة مع فرع نباتي يتدلى من منقارها أو يحيط بها ، بعضها متقابلة واخرى متدابرة في موضع أو رافعة رؤوسها نحو الاعلى الالتهام ورقة أو زهرة في موضع آخر ، أو متجهة رؤوسها نحو الاسفل لالتقاط شيء ما . ومن ابرز انواع الطيور التي تتكرر بدقة وانتظام « البلبل ، الطـاووس ، البـط ، الوز ، الحمام » اضـافـة الى وجود بعـض الاشكال التي تمثل اسداً ينقض على غزال فيفترسه وهذا من المواضيع العراقيـة القـديمـة الـتي تشاهـد عـلى الاختـام الاسطوانية(٦٧) ، اما في المدن الوسطى والجنوبية فلم نعثر في البيوت التي قمنا بزيارتها على نماذج من العناصر الحيوانية المرسومة أو المحفورة على الجص (شكل ١١) .

٣ ـ الزخارف الحيوانية على الاجر :

الاجر من المواد التي استخدمت في العراق منذ ازمان بعيدة كمادة للبناء والزخرفة ، وقد استمر استخدامه لهذين الغرضين حتى الوقت الحاضر .

والبيوت المشيدة في العصر العثماني نلاحظ وجود اختلاف بينها من حيث استخدام المواد الاولية ، فالشمالية منها مادة البناء والزخرفة الرئيسية فيها الحجر والرخام باستثناء مدينة اربيل التي استخدم الاجر كمادة بنائية رئيسية ولعمل بعض الاشكال الزخرفية خاصة الهندسية .

اما في بقية المدن العراقية الوسطى منها والجنوبية فالعناصر الحيوانية على الاجر قليلة جداً ابرزها ما نشاهده في بيت « الشهربلي » في بغداد ، وهي تمثل نقش بارز على الاجر لطائرين متقابلين كل منهما رافع رأسه نحو الاعلى ويتدلى منه فرع نباتي . وقد احيط الشكل بزخرفة نباتية بهيئة شريط يمتد اسفل السقف ، وما عدا هذا النموذج فلم نعثر على عناصر حيوانية منقوشة أو محفورة على الاجر في جميع البيوت التي قمنا بزيارتها .

(شكل ٢٦)

٤ ـ الزخارف الحيوانية على الخشب :

الخشب من المواد الاولية التي تخدم في التسقيف وعمل الابواب والشبابيك والواجهات الخشبية المزججة ذات الزخارف النباتية والهندسية والحيوانية ، اضافة الزخارف التي تحددها اطر خشبية تنحصر بينها بعض العناصر الحيوانية ، ابرزها طيور متقابلة يفصل بينها شكل يمثل آنية يخرج منها فرع نباتي ، وهذا الشكل يذكرنا بشجرة الحياة التي كانت معروفة عند سكان العراق القديم وبصورة خاصة عند الاشوريين وقد انزلت في الفتحات التي تؤلف هذه الاشكال قطع زجاجية ملونة اتخذت نفس الشكل ، وهذا ما نشاهده في بيت الحاج مخيف الشخير . اما في بقية المدن العراقية فلم نعثر على نماذج لاشكال حيوانية طبيعية أو رمزية ، ومما سبق ذكره يبدو ان الامثلة قليلة في هذا الباب وقد استخدمت جنباً الى جنب مع بقية العناصر لتجميل البيت واعطائه مكانة خاصة (شكل ٢٦) .

(٦٧) مورتكارت ، انطون ، الفن في العراق القديم ،و ص ٣٣٣ .